المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من حديث الإفك [١]
المطلب الأول
الدروس العقائدية

١ ـ إبراز بشرية الرسول ﷺ:

يقول د/ البوطي: «وأما قصة الإفك، فإنها حلقة فريدة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين، ولقد كانت هذه الأذيَّة أشد في وقعها على نفسه ﷺ من كل تلك المحن السابقة، وتلك هي طبيعة الشر الذي يصدر من المنافقين، فهو دائمًا يكون أقسى من غيره وأبلغ في المكيدة والضرر، إذ تكون الفرص والأسباب خاضعة لهم أكثر من غيرهم، وخبر الإفك صورة فريدة للأذى الذي تفرد به المنافقون.

وإنما كانت هذه القصة أبلغ من غيرها في إيذاء النبي ﷺ؛ لأن كل ما كان قد كابده قبل ذلك من المحن التي تحدثنا عن طرف منها، أمور كان يتوقعها، قد وطن نفسه لقبولها وتحملها، وليس التقاؤه بها في طريق الدعوة مفاجأة له، أما هذه فقد فوجئ بها؛ لأنها ليس مما قد اعتاده، أو توقعه، إنها اليوم شيء آخر، إنها شائعة، لو صحت لكانت طعنة نجلاء في أخص ما يعتز به إنسان، أخص ما يتصف به: الشرف والكرامة، وما الذي أدراه إنها شائعة صحيحة أو باطلة؟... من هنا كانت هذه الأذية أبلغ في تأثيرها من كل ما عداها؛ لأنها جاءت لتلقي بشعوره النفسي في اضطراب مثير لا مناص منه، ومع ذلك فلو أن الوحي سارع إلى كشف الحقيقة وفضح إفك المنافقين لكان في ذلك مخلص من هذا الاضطراب والشكوك المثيرة، ولكن الوحي تلبث أكثر من شهر لا يعلِّق على ذلك، فكان ذلك مصدرًا آخر للقلق والشكوك.

ومع ذلك فإن محنة الإفك هذه، جاءت منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية الرسول ﷺ، وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يتلبس بها، إن معنى النبوة في حياته ﷺ كان من المحتمل أن يبقى مشوبًا في وَهْم بعض المؤمنين به، والكافرين على السواء لو لم تأتِ حادثة الإفك هذه لتهز شخصية الرسول ﷺ هزًّا قويًّا يفصل إنسانيته العادية عن معنى النبوة الصافية فيه، ثم لتجلى معنى النبوة والوحي تجلية تامة أمام الأنظار والأفكار، حتى لا يبقى أي مجال التباس بينه وبين أي معنى من المعاني النفسية أو الشعورية الأخرى.

---

(١) يقول الإمام القاسمي: «واعلم أن ما اشتملت عليه هذه الآيات ـ أي آيات حديث الإفك ـ من الأحكام والفوائد والمطالب والآداب، لا تفي بها مجلدات». تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ١٢/ ٤٤٦٨.

لقد فاجأت هذه الشائعة سمع النبي ﷺ وهو في طور من إنسانيته العادية، يتصرف ويتأمل ويفكر كأي أحد من الناس ضمن حدود العصمة المعروفة للأنبياء والمرسلين، فاستقبلها كما يستقبل مثلها أي بشر عادي من الناس، ليس له اطلاع على غيب مكنون ولا ضمير مجهول، ولا على قصد ملفق كاذب، فاضطرب كما يضطربون، وشك كما يشكون، وأخذ يقلب الرأي على وجوهه، ويستنجد في ذلك بمشورة أولي الرأي من أصحابه.

وكان من مقتضى الحكمة الإلهية في إبراز هذا الجانب الإنساني المجرد فيه ﷺ أن يتأخر الوحي كل هذه الفترة التي تأخرها؛ كي تتجلى للناس حقيقتان، كل منهما على غاية من الأهمية:

أما الحقيقة الأولى: فهي أن النبي ﷺ لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشرًا من الناس، فلا ينبغي لمن آمن به أن يتصور أن النبوة قد تجاوزت به حدود البشرية، فينسب إليه من الأمور والتأثير في الأشياء ما لا يجوز نسبته إلا لله تعالى وحده.

وأما الحقيقة الثانية: فهي أن الوحي الإلهي ليس شعورًا نفسيًّا ينبثق من كيان النبي ﷺ كما أنه شيئًا ليس خاضعًا لإرادته أو تطلعاته وأمنياته، إذ لو كان كذلك، لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة من يوم ميلادها ويريح نفسه من ذيولها ونتائجها، ويجعل مما يعتقد من الخير والاستقامة في أهله قرآنًا يطمئن به أصحابه المؤمنين، ويسكت الآخرين من أصحاب الفضول، ولكنه لم يفعل؛ لأنه لا يملك ذلك.

ولننقل لك ما يقوله في بيان هذه الحقيقة د/ محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم) يقول: (ألم يرجف المنافقون في المدينة بحديث الإفك عن زوجه عائشة ﵂، وأبطأ الوحي وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس (إني لا أعلم عنها إلا خيرًا) ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب ومضى شهرٌ بأكمله والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «**يَا عَائِشَةُ! فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ**»).

هذا كلامه بوحي ضميره، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظنون ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنًا براءتها ومصدرًا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه ـ لو أن أمر القرآن إليه ـ أن يتقول هذه الكلمات الحاسمة من قبلُ ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها إلى الوحي السماوي؛ لتنقطع ألسنة المتخرصِّين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة]. [**النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٧**].

ولقد كانت السيدة عائشة ﵂، أول من تجلت لها هاتان الحقيقتان، حتى ذهبت في توحيدها وعبوديتها لله وحده مذهبًا أنساها ما سواه ومن سواه؛ فلذلك أجابت أمها حينما طلبت إليها أن تشكر رسول الله ﷺ قائلة: **وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي**.

إن هذا الكلام من السيدة عائشة ﵂ قد يبدو وكأن فيه شيئًا من عدم اللياقة تجاه النبي ﷺ غير أن الظرف والحالة هما اللذان أمليا عليها هذا الكلام، فهي إنما انساقت بوحي الحالة التي كونتها الحكمة الإلهية تثبيتًا لعقيدة المؤمنين، وقطعًا لإفك المنافقين والملحدين، وإظهارًا لمعنى التوحيد والعبودية الشاملة لله وحده.

وهكذا فقد انطوت قصة الإفك على حكمة إلهية باهرة استهدفت تثبيت العقيدة الإسلامية، ورد ما قد يعرض من شبهة عليها، وتلك هي الخيرية التي عبر الله عنها بقوله: ﴿**لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ [النور: ١١]. [**فقه السيرة للبوطي ٢٢١-٢٢٢**].

ويقول د/ رزق الله: «جاءت محنة الإفك منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها، فلو كان الوحي أمرًا ذاتيًّا غير منفصل عن شخصية الرسول ﷺ، لما عاش الرسول ﷺ تلك المحنة بكل أبعادها شهرًا كاملًا، ولكن الحقيقة التي تجلت للناس بهذه المحنة أنْ ظهرت بشرية الرسول ﷺ ونبوته، فعندما حسم الوحي اللغط الذي دار حول أم المؤمنين عائشة ﵂ عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرسول ﷺ، وفرح الجميع بهذه النتيجة بعد تلك المعاناة القاسية، فدل ذلك على حقيقة الوحي، وأن الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى لبقيت رواسب المحنة في نفس الرسول ﷺ بصفة خاصة، ولانعكس ذلك على تصرفاته مع زوجته عائشة ﵂، وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلًا كبيرًا على نبوة محمد ﷺ». [**السيرة النبوية لرزق الله ٤٤٠-٤٤١**].

ويقول د/ العمري: «في حديث الإفك توضيح دقيق لبشرية الرسول ﷺ، فقد تأثر أبلغ التأثر لرمي المنافقين زوجه، ومع حرصه عليها وحبه لها ولأبيها، فإنه لم يتمكن من الكشف عن الغيب أو استحضار الوحي الذي انقطع عنه شهرًا؛ ليجري عليه الابتلاء والامتحان، فلو كان الوحي إلهامًا أو تألقًا عقليًّا ـ أي انبثاقًا من فكرة ـ فإن الحوافز الكثيرة التي أثرت في كيانه وأقلقت فكره وحفزت عاطفته كانت كفيلة بانطلاق الوحي لإنهاء الصراع والقلق والألم في نفسه ﷺ، ولكن الرسول ﷺ كما حكى القرآن: ﴿**قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ**﴾ [الكهف: ١١٠]، ولا سلطان له على الوحي، ولا يقدر على استحضاره ولا الإضافة إليه: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾**﴾ [الحاقة]». [**السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤١٥-٤١٦**].

«وهذا يدل على بشريته ﷺ وأن الوحي من عند الله ﷻ وهو الذي يعلم الغيب، فالرسول ﷺ بشر لكنه يتميز عن غيره بأنه ﷺ يوحى إليه». [**فقه السيرة للزيد ٤٨٤**].

ويقول د/ قريبي: «لقد كانت قصة الإفك فريدة في نوعها وضخامتها عن جميع المحن والمصائب التي واجهها رسول الله ﷺ في هذه الغزوة وفي غيرها؛ لأن الرسول ﷺ كان وقد وطن نفسه لمواجهة كل بلية أو أذى يقوم به المنافقون؛ لأنه على علم وبصيرة نافذة بمكايدهم وخستهم، إلا أنه لم يكن يتوقع منهم النَّيْل من عرضه ورميه في أحب الناس إليه؛ لذا كانت حادثة الإفك لها أثرها ووقعها الثقيل على رسول الله ﷺ، لقد جاءت هذه القصة تحمل في طياتها إبراز بشرية الرسول ﷺ، وأنه يتأثر كغيره من بني الإنسان، وأنه لا يعلم الغيب وإنما الغيب لله وحده، إذ لو كان يعلم الغيب لجزم ببراءة ساحة أهله وكذب المفترين لأول وهلة، وأراح نفسه، وأراح غيره.

ولكنه مكث أكثر من شهر في قلق دائم والناس يموجون ويخوضون في ذلك، وهو لا يزيد على أن يشاور أصحابه وأتباعه في شأن أهله، ويطلب من ينجده بإيقاف هذا الحادث الأليم، ثم في آخر المطاف يذهب إلى زوجه يقول لها: «**يَا عَائِشَةُ! فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**».

لقد كان هذا كله حاسمًا لما يخشى أن يقع فيه بعض المسلمين فيرفعون رسول الله ﷺ فوق منزلته التي أنزله الله إياها ويَدَّعون له ما لم يدعه لنفسه، فكانت هذه الواقعة واضحة الدلالة على مشاركة الرسول ﷺ غيره في البشرية، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه.

وقد أوضح ذلك في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ٢٧﴾ [الجن].

وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف]». [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٨٩-٤٩٠].

٢ ـ الوحي بيد الله يوحيه إلى رسوله متى شاء:

يقول د/ أبو فارس: «تأخر نزول الوحي بالقرآن في تبرئة عائشة رضي الله عنها دليل على أن هذا القرآن من عند الله تبارك وتعالى: إن الذي يقرأ حديث الإفك ويتابع وقائع الأحداث يشعر بالحالة النفسية الحرجة التي كان يعيشها رسول الله ﷺ ويلاحظ حالة القلق والحزن في سويداء قلب أبي بكر الصديق وبنته الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما.

إن هذه الحالة لم تكن يومًا مضى وانقضى ـ وإن كان اليوم في هذه الأحوال كأنه سنة أو ألف سنة ـ لقد استمرت هذه الحالة شهرًا كاملًا، ولا يستطيع النبي ﷺ أن يفعل شيئًا، وينتظر كما ينتظر سائر الخلق حتى ينزل القرآن ببراءة عائشة رضي الله عنها.

كل هذا دليل على أن هذا القرآن مِنْ عِنْدِ الله، وليس من عند بشر حتى ولو كان رسولًا نبيًّا، حتى ولو كان سيد ولد آدم خاتم النبيين والمرسلين، ولو كان من عند الرسول ﷺ لما انتظر هذه المدة الطويلة المرهقة، وهو يعاني من الآلام والأحزان، وكذلك يرى زوجه وأمها وصهره وصاحبه في الغار يعانون ما يعانون من القلق والأسى، كان بإمكانه ـ لو كان القرآن من عنده ـ أن يحل المشكلة ويوقف الأحزان من أول يوم، فيعلن براءتها، إلا أن شيئًا من هذا لم يكن، بل ظل يسأل عن عائشة من يعرفها ويستشير في شأن فراقها وينتظر أمر الله وحكمه، حتى نزل بعد ثلاثين يومًا من قيل وقال وكثرة السؤال».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٠-٦١].

ويقول د/ قريبي: «إن قصة الإفك كان من نتائجها البيان القاطع بأن الوحي ليس خاضعًا لأمنية الرسول ﷺ وإرادته، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة منذ نشأتها وطفولتها، ويريح نفسه من ويلاتها ونتائجها، وذلك بأن يأتي بقرآن يبرئ به أهله ويطمئن به أصحابه، ويُسكت به أهل القيل والقال؛ لأنه كان يعلم من أهله الاستقامة والبعد عن هذه الجريمة الشنعاء، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه لا يملكه وإنما الوحي بيد الله وحده.

وقد نفى الله عنه ذلك في أَحَد مواقفه مع المشركين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

وظل شهرًا كاملًا يحمل بين جنبيه الألم الشديد، من جَرَّاء هذه الكارثة الفادحة ويصبر نفسه على ذلك ويطلب الفرج من الله ﷻ.

وكان من تمام الحكمة الإلهية أن تأخر عنه الوحي هذه المدة كلها ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وقد عالج ابن القيم هذه القضية معالجة طيبة، وإليك ما قاله ﷺ: «فَإِنْ قِيلَ: فَمَا بَالُ رَسُولِ الله ﷺ تَوَقَّفَ فِي أَمْرِهَا، وَسَأَلَ عَنْهَا وَبَحَثَ، وَاسْتَشَارَ، وَهُوَ أَعْرَفُ بِالله وَبِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ وَبِمَا يَلِيقُ بِهِ، وَهَلَّا قَالَ: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور] كَمَا قَالَهُ فُضَلَاءُ الصَّحَابَةِ؟

الامْتِحَانُ لَهُ ﷺ: فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْحِكَمِ الْبَاهِرَةِ الَّتِي جَعَلَ اللهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ سَبَبًا لَهَا وَامْتِحَانًا وَابْتِلَاءً لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلِجَمِيعِ الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِيَرْفَعَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ أَقْوَامًا، وَيَضَعَ بِهَا آخَرِينَ، وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَإِيمَانًا، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا.

وَاقْتَضَى تَمَامُ الِامْتِحَانِ وَالِابْتِلَاءِ أَنْ حُبِسَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ الْوَحْيُ شَهْرًا فِي شَأْنِهَا، لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ؛ لِتَتِمَّ حِكْمَتُهُ الَّتِي قَدَّرَهَا وَقَضَاهَا، وَتَظْهَرَ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَيَزْدَادَ الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ إِيمَانًا وَثَبَاتًا عَلَى الْعَدْلِ وَالصِّدْقِ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِالله وَرَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَالصِّدِّيقِينَ مِنْ

عِبَادِهِ، وَيَزْدَادَ الْمُنَافِقُونَ إِفْكًا وَنِفَاقًا وَيُظْهِرَ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ سَرَائِرُهُمْ؛ وَلِتَتِمَّ الْعُبُودِيَّةُ الْمُرَادَةُ مِنْ الصِّدِّيقَةِ وَأَبَوَيْهَا، وَتَتِمَّ نِعْمَةُ الله عَلَيْهِمْ، وَلِتَشْتَدَّ الْفَاقَةُ وَالرَّغْبَةُ مِنْهَا وَمِنْ أَبَوَيْهَا، وَالِافْتِقَارُ إِلَى الله وَالذُّلُّ لَهُ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ وَالرَّجَاءُ لَهُ؛ وَلِيَنْقَطِعَ رَجَاؤُهَا مِنْ الْمَخْلُوقِينَ، وَتَيْأَسَ مِنْ حُصُولِ النُّصْرَةِ وَالْفَرَجِ عَلَى يَدِ أَحَدٍ مِنْ الْخَلْقِ؛ وَلِهَذَا وَقَّتَ هَذَا الْمَقَامَ حَقَّهُ لَـمَّا قَالَ لَهَا أَبَوَاهَا: **قُومِي إِلَيْهِ**، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ بَرَاءَتَهَا، فَقَالَتْ: **وَالله لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلا اللهَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي**.

حَبْسُ الْوَحْيِ لِتَمْحِيصِ الْقَضِيَّةِ وَازْدِيَادِ حَاجَتِهِ ﷺ لَهُ: وَأَيْضًا فَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ حَبْسِ الْوَحْيِ شَهْرًا أَنَّ الْقَضِيَّةَ مُحِّصَتْ وَتَمَحَّضَتْ، وَاسْتَشْرَفَتْ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ أَعْظَمَ اسْتِشْرَافٍ إِلَى مَا يُوحِيهِ اللهُ إِلَى رَسُولِهِ فِيهَا، وَتَطَلَّعَتْ إِلَى ذَلِكَ غَايَةَ التَّطَلُّعِ، فَوَافَى الْوَحْيُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَالصِّدِّيقُ وَأَهْلُهُ وَأَصْحَابُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَوَرَدَ عَلَيْهِمْ وُرُودَ الْغَيْثِ عَلَى الْأَرْضِ أَحْوَجَ مَا كَانَتْ إِلَيْهِ، فَوَقَعَ مِنْهُمْ أَعْظَمَ مَوْقِعٍ وَأَلْطَفَهُ، وَسُرُّوا بِهِ أَتَمَّ السُّرُورِ، وَحَصَلَ لَهُمْ بِهِ غَايَةُ الْهَنَاءِ، فَلَوْ أَطْلَعَ اللهُ رَسُولَهُ عَلَى حَقِيقَةِ الْحَالِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَأَنْزَلَ الْوَحْيَ عَلَى الْفَوْرِ بِذَلِكَ؛ لَفَاتَتْ هَذِهِ الْحِكَمُ وَأَضْعَافُهَا، بَلْ أَضْعَافُ أَضْعَافِهَا.

إِظْهَارُ اللهِ ﷻ مَنْزِلَتَهُ ﷺ وَأَهْلِ بَيْتِهِ عِنْدَهُ: وَأَيْضًا فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَحَبَّ أَنْ يُظْهِرَ مَنْزِلَةَ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ عِنْدَهُ، وَكَرَامَتِهِمْ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُخْرِجَ رَسُولَهُ عَنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَيَتَوَلَّى هُوَ بِنَفْسِهِ الدِّفَاعَ وَالْمُنَافَحَةَ عَنْهُ، وَالرَّدَّ عَلَى أَعْدَائِهِ، وَذَمِّهِمْ وَعَيْبِهِمْ بِأَمْرٍ لَا يَكُونُ لَهُ فِيهِ عَمَلٌ، وَلَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ، بَلْ يَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ الْمُتَوَلِّي لِذَلِكَ، الثَّائِرُ لِرَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ.

ثُبُوتُ بَرَاءَةِ عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ رضي الله عنها: وَأَيْضًا فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ هُوَ الْمَقْصُودَ بِالْأَذَى، وَالَّتِي رُمِيَتْ زَوْجَتُهُ، فَلَمْ يَكُنْ يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَشْهَدَ بِبَرَاءَتِهَا مَعَ عِلْمِهِ أَوْ ظَنِّهِ الظَّنَّ الْمُقَارِبَ لِلْعِلْمِ بِبَرَاءَتِهَا، وَلَمْ يَظُنَّ بِهَا سُوءًا قَطُّ، وَحَاشَاهُ، وَحَاشَاهَا؛ وَلِذَلِكَ لَـمَّا اسْتَعْذَرَ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ قَالَ: «**مَنْ يَعْذِرُنِي فِي رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَالله مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**»، فَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ الْقَرَائِنِ الَّتِي تَشْهَدُ بِبَرَاءَةِ الصِّدِّيقَةِ أَكْثَرُ مِمَّا عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لِكَمَالِ صَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ، وَرِفْقِهِ، وَحُسْنِ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ، وَثِقَتِهِ بِهِ، وَفَّى مَقَامَ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِالله حَقَّهُ، حَتَّى جَاءَهُ الْوَحْيُ بِمَا أَقَرَّ عَيْنَهُ، وَسَرَّ قَلْبَهُ، وَعَظَّمَ قَدْرَهُ، وَظَهَرَ لِأُمَّتِهِ احْتِفَالُ رَبِّهِ بِهِ، وَاعْتِنَاؤُهُ بِشَأْنِهِ.

[زاد المعاد ٣/ ٢٦١-٢٦٣]. [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٩١-٤٩٣].

٣ ـ صيانة زوجات الأنبياء من الخيانة:

يقول د/ أبو شهبة: «صان الله سبحانه أنبياءه أن تقع من زوجاتهم خيانة زوجية؛ وذلك لأن زنى الزوجة مما يمتد أثره السيئ إلى الزوج، فصان الله زوجاتهم عن ذلك حتى لا يكون منفرًا منهم، ومعوقًا عن الاهتداء بهم، أما الكفر فيجوز عليهن، وذلك كامرأتي نوح ولوط عليهما السلام؛ لأن الكفر لا تتعدى معرَّته

إلى الزوج، وأما ما ذكره الله عنهما في قوله ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[التحريم: ١٠].

فقد أجمع المفسرون سلفًا وخلفًا على أنه ليس المراد الزنا وإنما الخيانة في الدين، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما زنت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تخبر أنه مجنون، وإذا ما آمن به أحد أخبرت به قومه الكافرين، وكانت امرأة لوط تدل قومه على أضيافه إذا نزل به ضيف». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٦٥].

٤ ـ رؤيا الرسول ﷺ وحي صادق:

يقول د/ أبو فارس: «أفاد الحديث المتقدم أن الرسول ﷺ إذا رأى رؤيا في منامه كانت وحيًا، وجاءت روايات عديدة تذكر أن النبي ﷺ عند بدء النبوة كان إذا رأى رؤيا في منامه جاءت كفلق الصبح.

تأمل قول عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك: «**وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا**». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٩-٧٠].

المطلب الثاني

الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ حب أفراد الصف للقيادة وحرصهم على إراحة خاطره:

في قول علي رضي الله عنه لما استشاره الرسول ﷺ في قصة الإفك يقول الإمام بحرق: «قال العلماء: إنما رأى علي رضي الله عنه من النبي ﷺ انزعاجًا وقلقًا، فأراد راحة خاطره.

قلت: ومما يدل على أنهم كانوا يرون انزعاج خاطره أشد عليهم من كل أمر: أن عمر رضي الله عنه لما قال للأنصاري: جَاءَ الْغَسَّانِيُّ؟! فَقَالَ: بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، اعْتَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ أَزْوَاجَهُ» (١).

[حدائق الأنوار لبحرق ٣٠٠].

---

(١) البخاري في التفسير (٤٩١٣)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩)، ولفظه عن عمر رضي الله عنه: «وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالْخَبَرِ، وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالْخَبَرِ، وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا، فَقَدِ امْتَلأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ، فَإِذَا صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ الْبَابَ فَقَالَ: افْتَحِ افْتَحْ، فَقُلْتُ: جَاءَ الْغَسَّانِيُّ؟! فَقَالَ: بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، اعْتَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ أَزْوَاجَهُ».

وبلفظ: «... وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِذَا غَابَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَشَهِدْتُهُ أَتَيْتُهُ بِمَا يَكُونُ، وَإِذَا غِبْتُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَشَهِدَ أَتَانِي بِمَا يَكُونُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانَ مَنْ حَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ قَدِ اسْتَقَامَ لَهُ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَلِكُ غَسَّانَ بِالشَّأْمِ، كُنَّا نَخَافُ أَنْ يَأْتِيَنَا، فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِالأَنْصَارِيِ وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، قُلْتُ لَهُ: وَمَا هُوَ؟ أَجَاءَ الْغَسَّانِيُّ؟ قَالَ: أَعْظَمُ مِنْ ذَاكَ، طَلَّقَ رَسُولُ الله ﷺ نِسَاءَهُ». البخاري في اللباس (٥٨٤٣).

٢ ـ التأسي بالرسول ﷺ في تحمل إيذاء أعداء الدين:

يقول د/ رزق الله: «كانت قصة الإفك حلقة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين، وكان من لطف الله تعالى بنبيه وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها وبطلانها، وسجَّل التاريخ بروايات صحيحة مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لا سيما موقف أبي أيوب وأم أيوب، وهي مواقف يتأسى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفرية، فقد انقطع الوحي، وبقيت الدروس التي تركها لنا لنستفيد منها ونقوِّم بها المواقف المماثلة». [السيرة النبوية لرزق الله ٤٤٠].

٣ ـ الأدب والحياء في معاملة النساء المسلمات:

يقول د/ أبو شهبة: «أدب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في معاملة النساء المسلمات ولا سيما نساء النبي ﷺ، والمبالغة في توقي مواطن الريبة والتهمة، فقد ثبت أن صفوان ﷺ اكتفى بالاسترجاع حتى استيقظت السيدة عائشة ﵂، وفي استرجاعه ما يدل على استفظاعه وأسفه أن تترك زوجة النبي ﷺ في العراء، ولم يكلمها قط غير أنه سألها عن شأنها وعرض عليها الركوب، وحين الركوب أولاها ظهره ولما ركبت قاد بها ولم يسر خلفها.

وقديمًا فعل نبي الله موسى ﵇ ذلك مع ابنة شعيب ﵇، فقد قال لها: سيري خلفي ودليني على الطريق، خشية أن تضرب الريح بثوبها فتكشف أو تصف بعض جسمها.

وهذا غاية الأدب والعفة؛ ولذلك قالت ابنة شعيب ـ وقد سمعت ورأت ـ كما قال الله سبحانه: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص]. (أما أمانته فقد حدثناك عنها. وأما قوته فقد قيل: لأنها شاهدته وهو ينحي عن البئر، وما كان يطيق ذلك إلا الجماعة من الرجال، وقيل: لأنها رأته وقد دفع الرعاء عن البئر على كثرتهم، ولم يخشهم، وسقى لهما). [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٦٦].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد حمل نفر من الصحابة هَوْدَجَ عَائِشَةَ ﵂ ولم يشعروا بعدم وجودها فيه، وهذا يستفاد منه بأنهم كانوا في غاية الأدب معها، والمبالغة في ترك التنقيب عما في الهودج، بحيث إنها لم تكن فيه وهم يظنون أنها فيه وربما ظنوا أنها نائمة فيه. [ينظر: فتح الباري ١٠/ ٧٣].

ويمكننا أن نقول أيضًا: إن الفرق بين وزن الهودج بوجود عائشة فيه وخلوه منها، يسير بالنسبة لأولي العزم من الرجال الذين حملوه، فلم يشعروا به». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٠].

٤ ـ الحياء من الأدب:

يقول د/ أبو فارس: «إن القارئ الكريم يدرك هذا من تصرف صفوان بن المعطل ﷺ حينما رأى عائشة ﵂، وهي نائمة، فأخذ يسترجع حتى قامت من نومها على استرجاعه، ولم يكلمها بل أناخ بعيره وأركبها عليه ثم أخذ يقودها.

لقد مشى صفوان أمام عائشة ﵂، وهي تركب البعير، وفي هذا من الأدب الجم والحياء ما فيه، فقد جنب نفسه من النظر إلى أم المؤمنين، وعائشة ﵂، وكل امرأة حين يتقدمها الرجل الأجنبي وتمشي- هي خلفه، تشعر بالاستقرار النفسي، والاطمئنان القلبي في سيرها وركوبها، فإذا انكشف بعض جسمها أثناء ركوبها أو نزولها أو حركتها أو مشيها فإنها مطمئنة إلى أنه لن يراها، فتأمل هذا الأدب الجم والذوق الرفيع، والحياء الإيماني!

إن مشي صفوان أمام عائشة ﵂ قطع وساوس الشيطان في نفسها، وجعلها تطمئن اطمئنانًا يهدئ من روعها، ويستأصل الظنون والأوهام والخوف الريبة». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٤-٦٥].

٥ ـ حسن التصرف في الأزمات:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان موقف عائشة ﵂ حين تركها الجيش أن تبقى مكانها، ولا تغادره حتى إذا افتقدوها جاؤوا يبحثون عنها في المكان الذي فارقوها فيه، ولو غادرت المكان تبحث عنهم ربما ضلت الطريق وتعرضت لمتاعب ومصاعب، وتعرض الذين يبحثون عنها إلى مشقة وعنت وإرهاق».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٥].

٦ ـ شؤم الحرص على الدنيا:

يقول د/ الزيد: «في حديث الإفك شؤم الحرص على الدنيا، يقول ابن حجر ﵀: (فيه شؤم الحرص على المال؛ لأنها لو لم تُطل في التفتيش لرجعت بسرعة فلما زاد على قدر الحاجة أثر ما جرى)».

[فقه السيرة للزيد ٤٨٥].

٧ ـ الصحابة ﵃ بشر وليسوا ملائكة:

يقول د/ أبو فارس: «إن ما جرى من المشادة بين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير، يستفاد منها أن الصحابة ـ على علو كعبهم وشرف منزلتهم، وسمو أخلاقهم ـ بشر يخطؤون ويصيبون ويذنبون ويستغفرون، ليسوا بمعصومين كالرسل والملائكة، فالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

أما البشر فيقول الرسول ﷺ بشأنهم مخاطبًا إياهم: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**». [مسلم في التوبة(٢٧٤٩). [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٥].

ويقول د/ العمري: «والحق أن حديث الإفك كادت تشعل نار العصبية من جديد بين الأوس والخزرج هذه المرة حيث تجادل زعماؤهم بغضب في المسجد، وكان هذا هو مقصد المنافقين أن يهدموا وحدة المسلمين ويزعزعوا ثقتهم بقيادتهم، ويشعلوا نار الفتنة بينهم، ولكن الله سلَّم، وتمكن الرسول ﷺ من تهدئة الجميع والحفاظ على وحدتهم والخروج من الامتحان الصعب بنجاح».

[السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤١٢].

٨ ـ العزاء والسلوى للعفيفات المرميات بالزور:

يقول د/ أبو شهبة: «إن في هذه القصة عزاء وسلوى للعفيفات اللاتي يرمين زورًا وكذبًا بالفاحشة، فهذه الصديقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما، وزوج الرسول ﷺ، والمبرأة من فوق سبع سماوات قد رميت بما هي براء منه، من المنافقين ومن شايعهم من ضعفاء الإيمان، ومن قبل رمي اليهود صدِّيقة بني إسرائيل السيدة مريم البتول عليها السلام بالزنا، فما دنس ذلك من شرفها، ولا أنزل من كرامتها عند ربها، بل زادها رفعة وشرفًا، ولا تزال هذه القصة تتكرر على مسرح الحياة، فليكن للمحصنات المؤمنات الغافلات اللاتي لا يسلمن من قالة السوء فيها عزاء وسلوى». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٦٥-٢٦٦].

٩ ـ الصالحات للصالحين:

يقول صاحب الظلال: «ويختم الحديث عن حادث الإفك ببيان عدل الله في اختياره الذي ركبه في الفطرة، وحققه في واقع الناس، وهو أن تلتئم النفس الخبيثة بالنفس الخبيثة، وأن تمتزج النفس الطيبة بالنفس الطيبة، وعلى هذا تقوم العلاقات بين الأزواج، وما كان يمكن أن تكون عائشة رضي الله عنها كما رموها، وهي مقسومة لأطيب نفس على ظهر هذه الأرض: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾[النور].

ولقد أحبت نفس رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها حبًّا عظيمًا، فما كان يمكن أن يحببها الله لنبيه المعصوم، إن لم تكن طاهرة تستحق هذا الحب العظيم.

أولئك الطيبون والطيبات ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ بفطرتهم وطبيعتهم، لا يلتبس بهم شيء مما قيل.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ مغفرة عما يقع منهم من أخطاء، ورزق كريم، دلالة على كرامتهم عند ربهم الكريم». [الظلال لقطب ٤/ ٢٥٠٥-٢٥٠٦].

١٠ ـ حسن معاشرة الأزواج والرحمة بهن:

يقول د/ أبو شهبة: «حسن معاشرة النبي ﷺ لأزواجه، ورحمته بهن، وضبط النفس حتى في المواقف التي يستبد بالنفس البشرية فيها الغضب، فتخرج عن حد الاعتدال، فعلى الرغم مما قيل في عائشة رضي الله عنها مما يجرح القلب، ويؤذي النفس كان يدخل عليها وهي مريضة فيسأل عنها، وإن لم تجد منه ﷺ اللطف الذي كانت تجده منه حينما كانت تشتكي، وغاية ما يطمع فيه من بشر كريم في مثل هذا الموقف المؤلم المحير أن يكظم غيظه، ويكف غضبه، أما الملاطفة فأمر خارج عن طوق البشر، ولن تكون إلا ممن فقد غَيْرته، وذهبت من نفسه معالم الرجولة والنخوة.

ويبلغ السمو الإنساني بالرسول ﷺ في معاملة عائشة رضي الله عنها حينما دخل عليها وهي في بيت أبيها وقال لها: «**يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»!

يا لعظمة النفس، إن العظيم حقًّا هو الذي يعلم أن كل بني آدم خطاء، وييسر للمذنبين طريق التوبة، والقوي حقًّا هو الذي يرحم ضعف الناس!

كان يمكن للنبي ﷺ أن يطلِّق عائشة رضي الله عنها، وبذلك يستريح من ألم النفس الواصب، ويقطع قالة السوء، ولكن كيف يكون هذا؟ وهو الذي وسع بصدره وخلقه الناس جميعًا على اختلاف مشاربهم وفطرهم وطبائعهم، حتى استحق ثناء الحق جل وعلا حيث يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[القلم]».

[السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٦٦-٢٦٧].

١١ ـ الإفك أرذل الافتراء وأحطه لؤمًا أن يكون في حق أطهر الطاهرات:

يقول الشيخ عرجون: «وقد سمى الله تعالى في كتابه الحكيم هذا الافتراء (الإفك) فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] والإفك أبلغ الكذب، وأرذل الافتراء، وألأم الاختلاق، كما سماه جل شأنه بهتانًا وهو يعاتب المؤمنين في سكوتهم لحظة سماعهم بدافع إيمانهم بطهارة ساحة النبي ﷺ أن تكون في عصمته من تحوم حولها أدنى الشبهات، وبدافع إيمانهم بطهارة ذيل من اصطفاها الله تعالى زوجًا لخير الخلق خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ، فكانت بهذا الاصطفاء أمًّا للمؤمنين وسيدة نساء العالمين فضلًا وشرفًا وطهرًا وعلمًا وأدبًا وخلقًا ـ بقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾، والبهتان هو البلاء لا يشعر به الإنسان حتى يفجأه بوقوعه.

وفي أسلوب هذه الآية الكريمة ضرب من البلاغة والمبالغة في تنفير المؤمنين عن سكوتهم عند سماع ما يسيء ويشين سمعة أي مؤمن ومؤمنة، حيث جعل الله المؤمنين والمؤمنات شيئًا واحدًا بإيمانهم، وجعلهم كلهم نفسًا واحدة، يتوحد بها النفع والضرر، والخير والشر والإحسان والإساءة.

من أحسن ما قيل في بيان بلاغة الآية قول ابن المنير والزمخشري:

قال العلامة ابن المنير في انتصافه تعليقًا على قول الزمخشري: معناه ظنوا بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات، كقوله: لا تلمزوا أنفسكم، والسر في هذا التعبير تعطيف المؤمن على أخيه المؤمن وتوبيخه على أن يذكره بسوء، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة ولا شيء أشنع من ذلك.

قال الزمخشري: فإن قلت: هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرًا وقلتم؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر؟ قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرِّح بلفظ الإيمان، دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدِّق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن.

وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه، أن يبني الأمر فيها على الظنِّ لا على الشك، وأن يقول بملء فيه بناء على ظنِّه بالمؤمن الخير: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾ هكذا بلفظ المصرِّح ببراءة ساحته، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال.

وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بأخوات. [الكشاف للزمخشري ٤/ ٢٧٤].

القرطبي يعمم العتاب فيجعله شاملاً لجميع المؤمنين والمؤمنات حاشا أبا أيوب الأنصاري وزوجه: قال القرطبي: «هذا عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه، ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه ﷺ، وأن تَحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان. [تفسير القرطبي ١٥/ ١٧٥].

وقد وقع هذا التنزيه لله تعالى فخرج به من العتاب أبو أيوب الأنصاري وزوجته رضي الله عنهما، إذ دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب! أسمعت ما قيل؟ فقال: نعم، وذلك الكذب! أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله، قال أبو أيوب: فعائشة والله أفضل منك، قالت أم أيوب: نعم، وهذا فضل انفرد به أبو أيوب وزوجته، فتفضَّل الله عليهما فأخرجهما من عتاب شمل جميع المؤمنين.

وقد أنزل الله تعالى في شأن قصة الإفك، وشأن المتكلمين فيه بالباطل والكذب وتبرئة الصديقة رضي الله عنها والثناء عليها، وذكر ما أعده الله لها من عظيم الثواب في الآخرة، ونقاء السيرة في الدنيا، وعلو الدرجة في المجتمع المسلم أينما كانت أجياله وأوطانه ـ قرآنًا يُتلى، ويُتعبد بتلاوته وتشريعاته، ويُصلى به، آيات محكمات، ملزِمًا لكل مؤمن ومؤمنة بما جاء به من هداية وأحكام إلى يوم القيامة.

وذلك في نحو ست عشرة آية من صدر سورة النور، تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ [النور: ١١] وتختم بقوله جل شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٢٦﴾ كل آية منها مستقلة ـ كما يقول الزمخشري ـ بما هو تعظيم لشأن رسول ﷺ، وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضي الله عنها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢١-٢٢٣].

١٢ ـ الرسول ﷺ وحديث الإفك:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر مواقف جليلة لرسول الله ﷺ، ولأبي بكر الصديق ﷺ، وأم المؤمنين عائشة ﷺ، وصفوان بن المعطل السلمي ﷺ، وغيرهم من الصحابة ﷺ.

فالرسول ﷺ قد ابْتُلي بهذه الفرية بلاء عظيمًا، فهو في أعلى مسؤولية من الدعوة والقيادة، وأي شيء يدنِّس سمعته فإنه يؤثر على سير دعوته ومكانته القيادية؛ فلهذا عاش تلك المدة قبل أن ينزل عليه الوحي ببراءة عائشة في معاناة شديدة.

ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يطلِّق عائشة فور سماع هذه الفرية ويخلص نفسه من ذلك البلاء، ولكن لم يكن من خُلُقه ﷺ أن يحافظ على سمعته الدعوية والقيادية بظلم الآخرين، فما ذنب عائشة الطاهرة وبيتها الطاهر حينما يكون حل المشكلة بالقضاء عليها وإنزال مزيد من البلاء على أبويها؟!

لذلك كان البقاء في المعاناة والحرج مع شدته هو السلوك الأمثل عند رسول الله ﷺ حتى يأتي الفرج من الله تعالى، وفي هذا مثل واضح على اتصاف النبي ﷺ بأعلى ما يمكن أن يتصف به بشر من الرحمة والشفقة.

ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يحكم ببراءتها من أعلى منبر لما يعلمه من صدقها وعفافها وتقواها، وسيصدقه في ذلك المؤمنون، ولكن كيف وقد قيل ما قيل وانتشرت الإشاعة الأثيمة في كل أوساط المدينة، وربما أنها انتقلت خارج المدينة؟!

وهل يكفي إعلان النبي ﷺ بالبراءة لقطع دابر ألسنة الحاقدين من اليهود والمنافقين؟ وهل ستظل سمعة النبي ﷺ الدعوية والقيادية نقية طاهرة بمجرد هذا الإعلان؟

لقد كان ﷺ واثقًا من طهارة الصديقة ونزاهتها مما نُسب لها ولذلك قام على المنبر وقال: «**مَنْ يَعْذِرُنِي فِي رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا**».

ولكن لم يكن ذلك إعلانًا للبراءة الكاملة التي تُسكت الحاقدين وتقطع جميع موارد الفتنة، وإنما كان ذلك محاولة منه ﷺ لكف أذى كبير المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول عن نفسه وأسرته حتى ينزل في الأمر بيان قاطع شاف من الله تعالى، ولم يسبق أن حدث مثل تلك الفرية ونزل فيها تشريع من الله تعالى، ولو كان لطبقه رسوله الله ﷺ حالًا». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩١-٩٢].

١٣ ـ الرسول ﷺ قمة القمم في الصبر:

ولقد أراد الله أن يختبر نبيه ﷺ بحديث الإفك ليظل قمة القمم في الصبر، ومثلًا أعلى للمؤمنين في الاحتساب، فلم يكن هناك لون من الابتلاء يصعب على النفس البشرية تحمله إلا والنبي ﷺ ذاقه وصبر عليه واحتسب أجره عند الله.

لقد فقد أحب الناس إليه فصبر، وأوذي في جسده فصبر، وأوذي في عرضه فصبر واحتسب، كان الإفك محنة فصار منحة، كان بلاء فصار وسامًا، ونزلت تبرئه الزوجة العفيفة في قرآن يتلى ويتعبد بتلاوته أبد الدهر، فهل هناك تكريم لعائشة أكثر من هذا؟ ولقد صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور].

كان هذا الحادث فرصة يتعلم منها المؤمنون دروسًا في التهذيب وحسن الخلق والتمسك بالفضائل.

١٤ ـ صبر النبي ﷺ وآل أبي بكر رضي الله عنه تحت وطأة بلاء الإفك:

يقول الشيخ عرجون: «وقد لبث ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية صابرًا صبرًا لم يُعرف في تاريخ النوازل والبلايا لأحد من قبله، ولا لأحد من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد قدومهم المدينة بسبع وثلاثين ليلة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، تحدث به أهل النفاق ومرضى القلوب، ولاكته ألسنتهم بين أشداقهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

وكذلك كان حال آل أبي بكر، فإنهم منذ بلغهم (الإفك) وما تحدث به المنافقون ومرضى القلوب وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون ولا ما يفعلون، ولكنهم استسلموا لقضاء الله منتظرين حكمه ـ وهم يتجرعون مرارة الصبر في حيرة وذهول ـ بكشف هذه الغمة التي أحاطت أثقالها بأكنافهم، وكان أمر رسول الله ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم.

وصف عائشة لحالها وحال أبويها في أحرج لحظات البلاء: تقول عائشة رضي الله عنها تصف حال أبويها وحال أهل بيتها، وما بلغت منهم المحنة من شدة عصفت بكيانهم، وزلزلت أقدامهم، وأذابت فيهم عناصر الحركة النفسية والفكرية، فسكتوا سكوت المطلع إلى الغيب، يتسمع حكمه على حياته: ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام.

ثم تقول عائشة ـ رضوان الله عليها ـ تصف حالها من الثقة واليقين الإيماني ببراءتها، وتصف حال أبويها وشدة ما نزل بهما حين نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وتغشاه ما كان يتغشاه: «فَأَمَّا أَنَا حِينَ رَأَيْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ، فَوَالله مَا فَزِعْتُ وَلَا بَالَيْتُ، قَدْ عَرَفْت أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ غَيْرُ ظَالِمِي، وَأَمَّا أَبَوَايَ فَوَالَّذِي نَفْسُ عَائِشَةَ بِيَدِهِ مَا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى ظَنَنْتُ لَتَخْرُجَنَّ أَنْفُسُهُمَا، فَرَقًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ الله تَحْقِيقُ مَا قَالَ النَّاسُ». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٨-٢٢٩**].

١٥ ـ شدة بلاء هذا الحادث على رسول الله ﷺ وعلى زوجه أم المؤمنين وعلى أبويها وآلها وسائر المسلمين:

يقول الشيخ عرجون: «وكان في هذا الحديث الخطير من شدة البلاء لرسول الله ﷺ ما لم يعلم مبلغ إيجاعه وإيلامه إلا الله تعالى، ولكن رسول الله ﷺ كان في صبره فوق مستوى الأحداث وآلامها، فصبر أجمل الصبر، واحتمل أعظم الاحتمال، وعالج الأمر بحكمة هادئة، وكان همه الأكبر أن يقي المجتمع المسلم عواصف الفتن، وقواصم المكايد النفاقية التي كانت تثيرها العصبيات القومية التي كانت من بقايا الرواسب الجاهلية في أنفس بعض المؤمنين.

كما كان في هذا الحدث الخطير لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، زوجة سيد الخلق وأحب الناس إليه، ولأبويها وآلها، وخاصة المسلمين وعامتهم ما أقض مضاجعهم ونشَّف الدمع في مآقيهم، حتى كشف الله تعالى الغمة، وفرج الكربة، وأنزل وحيه بالقرآن الكريم على رسوله الأمين بما لم يكن لأحد في الحسبان، ولا وقع مثله قط في حادثة من الحوادث التي تراها النظرة العابرة على أنها حادثة فردية كان يكفي في إبطالها أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا منامية في تبرئة أطهر الطاهرات أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٣-٢٢٤].

١٦ ـ ما غيبته الأقدار في هذا البلاء من حكم ربانية تمثل جوانب من منهج الرسالة:

يقول الشيخ عرجون: «ولكن الله تعالى أراد أن يجعل هذه الحادثة درسًا تربويًّا بليغًا للمجتمع المسلم تبقى معه آثاره ما بقي في الحياة من يتلو آيات الله من الهدى والنور.

وأن يجعل منها درسًا تأديبيًّا للذين ساقتهم العصبيات القومية سياقًا لا يرضاه إيمانهم برسالة الإسلام وآدابها وشرائعها وأحكامها وأخلاقها.

وأن يجعل منها نكالًا للنفاق والمنافقين، وللذين في قلوبهم مرض لا يشفيه إلا الإرجاف بالسوء وإشاعة الأكاذيب والبهتان في مجتمع المؤمنين.

وأن يجعل منها منارًا على طريق الذين ملأ الإيمان قلوبهم ليزيدهم علمًا بمقام رسول الله ﷺ ومعرفة بحرماته، وتقديرًا لمنزلته عند ربه الذي أرسله هدى ورحمة للعالمين.

وأن يجعل منها منهجًا لمعالم الاصطفاء لخواص المقربين لرسول الله ﷺ لتعرفهم الأمة بنعوت فضلهم وفواضلهم، وتعرف لهم أقدارهم في ذروة دوحة الإيمان والمؤمنين.

وأن يجعل منها خصيصة ليرفع من شأن أطهر الطاهرات، الصديقة بنت الصديق زوج أحب خلق الله إلى الله؛ إظهارًا لشرفها الذاتي والاجتماعي، وإنافة لمكانتها في أهل البيت طهرًا وفضلًا وشرفًا، وثقلًا

في ميزان الفضائل الإنسانية والإيمانية لمكانها من قلب رسول الله ﷺ».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٤-٢٢٥].

١٧ ـ أبو بكر الصديق ﷺ وحديث الإفك:

يقول د/ الحميدي: «أما أبو بكر الصديق ﷺ فقد ابتُلي أيضًا ببلاء عظيم، فقد كانت التهمة موجهة لبنته الصديقة الطاهرة، وبالتالي فإن أبا بكر ﷺ الذي يعتبر أول رجل في الإسلام بعد رسول الله ﷺ قد وُجهت له طعنة نجلاء وضربة موجعة، والمنافقون وسائر أعداء الإسلام أحرص شيء على تشويه سمعة قادة المسلمين البارزين، وقد عاش ﷺ تلك الفترة في هم كبير ومعاناة شديدة لما يرى من نيل المنافقين الشديد من رسول الله ﷺ، ولما يرى من واقع ابنته المحزن، والبلاء الهابط على أسرته، ولكنه كان جميل الصبر، راسخ اليقين، عظيم الثقة بالله ﷻ.

ومما تجمل به الصديق ﷺ من عفة اللسان أنه لم يصدر منه أي سب ولا شتم لأولئك الذين خاضوا في عِرض ابنته، ولم يُنقل عنه ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ أنه قال شيئًا إلا قوله: «**والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام**». [فتح الباري ٨/ ٤٨٠]. [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩٢-٩٣].

١٨ ـ محنة عائشة ﷺ:

يقول د/ الحميدي: «أما الصديقة بنت الصديق ﷺ فقد نزل عليها خبر الإفك نزول الصاعقة، وظلت تبكي الليل والنهار، وكان من فضل الله تعالى عليها أنها لم تعلم بهذا الخبر إلا في وقت متأخر، ومع صغر سنها وشناعة الإفك وسعة انتشاره فإنها لم يظهر منها أي سلوك يخدش دينها أو يشين عقلها، وصبرت صبرًا جميلًا مشوبًا بالحياء المتين والأدب الرزين، حتى فرج الله ﷻ كربتها وأنزل براءتها».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩٣].

١٩ ـ بيان فضل أم المؤمنين عائشة ﷺ وتواضعها:

يقول الشيخ عرجون: «وقد أبانت عائشة ﷺ أبلغ بيان بأروع أسلوب إذ تحدثت عن نفسها بعد أن برأها الله تعالى فقالت: لقد أعطيت تسعًا ما أعطيتهن امرأة: لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته حين أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكرًا ما تزوج بكرًا غيري، ولقد توفي رسول الله ﷺ وإن رأسه لفي حجري، ولقد قبر في بيتي، ولقد حفت الملائكة ببيتي، وإن كان الوحي لينزل عليه وأنا معه في لحافه، فما يبينني عن جسده، وإني لابنة خليفته وصدِّيقه، ولقد نزل عذري من السماء، ولقد خلقت طيبة عند طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقًا كريمًا.

ولقد صدقت في كل ما حدَّثت به عن نفسها من الفضل والشرف والخصائص النبيلة والصفات الكمالية التي لم تجتمع في امرأة قبلها ولا بعدها». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٦-٢٢٧].

ويقول د/ الزيد: «في حديث الإفك فضيلة ظاهرة عظيمة لأم المؤمنين عائشة ﵂ حيث نزلت براءتها بنص قرآني يتلى إلى يوم القيامة وإن كانت ﵂ تقول: (ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها)، لكن هذا شأنها في نفسها وهذا من تواضعها ﵂ وشأنها عند الله جل شأنه وعند المؤمنين عظيم جدًّا، وازداد عند المؤمنين بهذه البراءة المتلوة على ألسنة أهل القرآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها». [فقه السيرة للزيد ٤٨٥].

ويقول د/ أبو شهبة: «فقد شاء الله أن يبرئ عائشة ﵂ من فوق سبع سماوات، وأن ينزل في شأنها قرآنًا يُتلى إلى يوم الدين، وهذا بعض ما جوزي به رجل دخل في الإسلام من أول يوم، وبذل نفسه وأهله وماله لله ولرسوله، ولم يزد ـ وقد تلظَّى بنار هذه الفتنة ـ على أن قال: (والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام)!

وما جوزيت به سيدة قدمت للرسول ﷺ كل خير، ووفرت له كل وسائل الراحة النفسية والبيتية حتى تفرغ لأداء رسالة ربه، ولم تملك حينما نزل بها البلاء، وحل المصاب، إلا أن قالت كما قال نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف]».

[السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٦٧].

ويقول الإمام ابن القيم: «وَمَنْ تَأَمَّلَ قَوْلَ الصِّدِّيقَةِ وَقَدْ نَزَلَتْ بَرَاءَتُهَا، فَقَالَ لَهَا أَبَوَاهَا: قُومِي إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: «**وَالله لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا الله**».

عَلِمَ مَعْرِفَتَهَا، وَقُوَّةَ إِيمَانِهَا، وَتَوْلِيَتَهَا النِّعْمَةَ لِرَبِّهَا، وَإِفْرَادَهُ بِالْحَمْدِ فِي ذَلِكَ المَقَامِ، وَتَجْرِيدَهَا التَّوْحِيدَ، وَقُوَّةَ جَأْشِهَا، وَإِدْلَالَهَا بِبَرَاءَةِ سَاحَتِهَا، وَأَنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ مَا يُوجِبُ قِيَامَهَا فِي مَقَامِ الرَّاغِبِ فِي الصُّلْحِ، الطَّالِبِ لَهُ، وَثِقَتُهَا بِمَحَبَّةِ رَسُولِ الله ﷺ لَهَا قَالَتْ مَا قَالَتْ؛ إِدْلَالًا لِلْحَبِيبِ عَلَى حَبِيبِهِ، وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذَا المَقَامِ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ مَقَامَاتِ الْإِدْلَالِ، فَوَضَعَتْهُ مَوْضِعَهُ، وَلله مَا كَانَ أَحَبَّهَا إِلَيْهِ حِينَ قَالَتْ: «**لَا أَحْمَدُ إلا الله، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي**»، وَلله ذَلِكَ الثَّبَاتُ وَالرَّزَانَةُ مِنْهَا، وَهُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهَا، وَلَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ، وَقَدْ تَنَكَّرَ قَلْبُ حَبِيبِهَا لَهَا شَهْرًا، ثُمَّ صَادَفَتْ الرِّضَا مِنْهُ وَالإِقْبَالَ، فَلَمْ تُبَادِرْ إِلَى القِيامِ إِلَيْهِ، وَالسُّرُورُ بِرِضَاهُ وَقُرْبِهِ، مَعَ شِدَّةِ مَحَبَّتِهَا لَهُ، وَهَذَا غَايَةُ الثَّبَاتِ وَالْقُوَّةِ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٦٣].

ويقول د/ أبو فارس: «إن المرء إذا نزل فيه قرآن يبرئه مما اتهم به يُسر سرورًا عظيمًا ويتغنى به، وربما حدثته نفسه بشيء من العُجْبِ، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث لعائشة ﵂، ولنستمع إليها وهي تحدثنا عن نفسها بتجرد: «**وَلَكِنْ وَالله مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى، وَلَشَأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ ﷻ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ الله ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا**».

ولقد عُرفت ﵂ بهذا الخلق طيلة حياتها، فقد روى الإمام البخاري ﵀ عَنْ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ ﵂ وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ (من كرب الموت)، قَالَتْ: أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ، فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ الله ﷺ وَمِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ، قَالَتْ: ائْذَنُوا لَهُ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ، قَالَ: «**فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللهُ، زَوْجَةُ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ**»، وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلاَفَهُ (بعده)، فَقَالَتْ: **دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا**. [البخاري في تفسير القرآن (٤٧٥٣، ٤٧٥٤)].

إن خلق التواضع هو خلق الأنبياء والرسل، والأولياء، وخلق التكبر والكبرياء خلق الشياطين من الإنس والجن، وما أهلك أبليسَ ـ أعاذنا الله منه ـ إلا تكبره، إذ رفض تكبرًا السجود لآدم وقال مصرحًا عما في نفسه الخبيثة المتكبرة: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾[الأعراف]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧١].

البلاغة الأدبية عند عائشة ﵂: يقول د/ الحميدي: «ولقد عبرت في هذا الخبر عن معاناتها وآلامها حينما علمت بالإفك بأسلوب أدبي في غاية الرفعة والسمو.

إن حديث الإفك هذا يعتبر نموذجًا للأدب العالي، في قوة البيان، وجزالة الألفاظ، ووضوح المعنى، ولقد كانت عائشة ﵂ مشهورة بالفصاحة وقوة الكلمة والتأثير القوي على السامعين، ولقد أثنى عليها بالفصاحة والبيان بلغاء الصحابة والتابعين.

ومن نماذج بلاغتها في هذا الحديث قولها: **فانطلق ـ يعني صفوان ـ يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك**، فالفاء في قولها «**فهلك**» هي الفاء الفصيحة، فقد أفصحت عن جُمَل مقدرة تحكي حال الناس الذين خاضوا في تلك الفرية الشنيعة، فاكتفت ببيان عاقبة أمرهم عن وصف حالهم وجريمتهم.

ومن ذلك قولها: **فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة**، فهذا تعبير بليغ عن التأثير الشديد جدًّا الذي تجاوز حدود التأثر المعتاد الذي تستهل منه العيون دمعًا، فبلغ إلى الحد الذي قلص معه الدمع وجف تمامًا». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩٣-٩٤].

٢٠ ـ حفظ الله تعالى أمهات المؤمنين عن التكلم في هذه المحنة وهن ضرائر عائشة ﵂:

يقول الشيخ عرجون: «وكان من أجل النعم الإلهية على المجتمع المسلم في قصة (الإفك) أن الله تعالى حمى أمهات المؤمنين كلهن عن التكلم في محنة هذا البهتان الخبيث، لم يؤثر عن واحدة منهن فيها كلمة واحدة، وهن ضرائر عائشة ﵂ وشريكاتها في القرب الداني من رسول الله ﷺ، وهن اللائي كان يُخشى عليهن من تحريش الغَيْرة أن تدفعهن أو بعضهن إلى التحدث فيما يحوم حول ذلك.

ولكن الله تعالى حفظهن جميعًا حفظًا لمقام حرم رسوله ﷺ أن تظل عروش بيوتهن في خلوتهن أو جلوتهن معه ﷺ من لم تكن في أدبها النفسي، وتدينها ومراقبة ربها في ذروة السمو والفضل والشرف، ومعالي مكارم الأخلاق تأدبًا بأدب رسول الله ﷺ ونشأة على تنشئته لهن وتربيتهن بما يعصمهن عن الانزلاق إلى مزالق الباطل، وتقوله على من يعرفن أنها أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأعزهن عنده، وأعرفهن بمطارح أنظاره، وأسرعهن إلى التعلق بأسباب رضاه في كل ما تقرُّ به عينه ﷺ.

ومن ألطف ذلك وأحمد محامده أن القسطلاني ذكر في المواهب أن أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها كانت رفيقة عائشة في الخروج إلى هذه الغزوة، فقال: وخرجت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، ومر الزرقاني على قول القسطلاني في شرحه للمواهب ولم يعلق عليه بشيء.

وهذا قول يُظهر أنه مما انفرد به القسطلاني، أو وقع فيه وهم، فنقل من رواية وقصة أخرى إلى قصة بني المصطلق ورواية البخاري في قصة (الإفك) من حديث عائشة عن الزهري عن عدد من شيوخه عيون السلف وأكابره، تخالف ذلك تمام المخالفة، قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها ـ هي غزوة بني المصطلق ـ فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب، وسند هذا الحديث عند البخاري من أقوى وأوثق الأسانيد، لعلو درجة رجاله من شيوخ الزهري، ورواية القسطلاني لم نوفق إلى معرفة سندها [ذكرها الواقدي في مغازيه ١/ ٤٠٧]، وهي مخالفة لما هو متعارف من عادته وسنته ﷺ في السفر ببعض زوجاته بعد الإقراع بينهن تحقيقًا للعدل والمساواة في الحقوق، كما يقتضيه أسلوب عائشة رضي الله عنها في حديث الزهري الذي أخرجه البخاري عنه، من قولها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه، فهذا التعبير يفيد أن هذا كان من عادته وسنته في السفر مع بعض زوجاته، فرواية البخاري أرجح، بل أصوب إلى أن يظهر غير ذلك.

وكيفما كان الأمر فإن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها داخلة في عموم ما كان من أزواج النبي ﷺ في حفظهن عن التكلم في قصة الإفك بشيء، وهي معروفة في سيرتها بأنها كانت من أوزن بنات حواء عقلًا، ولو لم يكن لها من ذلك إلا مشورتها في الحديبية لكفاها فضلًا وشرفًا».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٨-٢٤٠].

٢١ ـ الورع وخشية الله:

يقول الشيخ عرجون: «وقد خص الله تعالى أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها بموقف نبيل من عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك، وهي التي كانت تناصيها عند رسول الله ﷺ مما كان يخاف منه العثرة، ذلك أن رسول الله ﷺ خصها بالسؤال عن عائشة قبل أن ينزل الوحي ببراءتها وطهارة ذيلها من رجس

(الإفك) وافتراء البهتان، فقال لها: «ماذا علمت أو رأيت»؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما رأيت إلا خيرًا.

قالت عائشة ﵂ تثني عليها وتعرف لها فضلها في دينها وأدبها: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك».

ونحن نرى أمر حمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش متشبهًا علينا، لا نستطيع أن نبت فيه بحكم؛ لأن الحكم عليها بدون دليل قاطع بأنها خاضت في (الإفك) والبهتان، وهي لم تفصح ولا صرحت بالقذف الموجب كالحكم على من زعم عليها بأنها خاضت في (الإفك) وصرحت وأفصحت بالقذف الموجب، وليس في يده حجة على إثبات ما يزعم أنه قد كان منها سوى ما جاء في الروايات المتعارضة في إيجاب العقوبة عليه حدًّا أو تعزيرًا زاجرًا». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٠].

ويقول د/ الحميدي: «كذلك كان لأم المؤمنين زينب بنت جحش ﵂ موقف جليل في الورع وخشية الله ـ تعالى ـ وذلك أنها لما استشارها رسول الله ﷺ في أمر عائشة قالت: «**يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيرًا**»، قالت عائشة ﵂: «**وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع**»، يعني فكان المظنون من ضرة تنافس ضرتها على الحظوة لدى الزوج أن تسعى جهدها في كسب زوجها، وقد يهبط مستواها الديني إلى افتراء أمور تنفر زوجها من ضرتها، لكن زينب لم تنتهز هذه الفرصة لتشويه سمعة عائشة ﵂.

وهكذا اصطفى الله تعالى لرسوله ﷺ نساء طاهرات تقيات، فلم يُذكر عن واحدة منهن أنها أسهمت في ذلك الإفك». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩٤-٩٥].

٢٢ ـ مواقف بعض الصحابة ﵃ من حديث الإفك:

عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: قَالَ لِي الْوَلِيدُ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ: أَبَلَغَكَ أَنَّ عَلِيًّا كَانَ فِيمَنْ قَذَفَ عَائِشَةَ؟ قُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ قَدْ أَخْبَرَنِي رَجُلَانِ مِنْ قَوْمِكَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ لَهُمَا: كَانَ عَلِيٌّ مُسَلِّمًا فِي شَأْنِهَا، فَرَاجَعُوهُ فَلَمْ يَرْجِعْ، وَقَالَ مُسَلِّمًا بِلَا شَكٍّ فِيهِ، وَعَلَيْهِ كَانَ فِي أَصْلِ الْعَتِيقِ كَذَلِكَ. [البخاري في المغازي (٤١٤٢)].

ويقول د/ الحميدي: «كذلك كان لبعض الصحابة مواقف عالية في الدفاع عن أم المؤمنين عائشة، وتنزيهها مما نُسب إليها، فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر من رواية عَطَاء الْخُرَاسَانِيِّ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَوْلُه: «وَكَانَتْ أُمُّ أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّة قَالَتْ لِأَبِي أَيُّوبَ ﵁: أَمَا سَمِعْتَ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ فَحَدَّثَتْهُ بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَقَالَ: **مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**».

قُلْتُ:... وَرَوَى الطَّبَرِيُّ أَيْضًا مِنْ طَرِيق ابْن إِسْحَاق «حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ بَعْض رِجَال بَنِي النَّجَّار أَنَّ أَبَا أَيُّوب قَالَتْ لَهُ أُمُّ أَيُّوبَ: **أَمَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ؟** قَالَ: **بَلَى، وَذَلِكَ الْكَذِبُ، أَكُنْتِ فَاعِلَةً ذَلِكَ يَا أُمَّ أَيُّوبَ؟** قَالَتْ: **لَا وَاللهِ**، قَالَ: **فَعَائِشَةُ وَاللهِ خَيْر مِنْكِ**، قَالَتْ: فَنَزَلَ الْقُرْآن: ﴿**لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ**﴾ [النور: ١٦] الْآيَة».

وَلِلْحَاكِمِ مِنْ طَرِيق أَفْلَحَ مَوْلَى أَبِي أَيُّوب عَنْ أَبِي أَيُّوب نَحْوُهُ، وَلَهُ مِنْ طَرِيق أُخْرَى قَالَ: «قَالَتْ أُمُّ الطُّفَيْل لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ» فَذَكَرَ نَحْوه. [فتح الباري ٨/ ٤٧٠].

وَقَالَ لأُسَامَةَ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟، قَالَ: **سُبْحَانَ الله! مَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام الطبراني من حديث سَعِيدِ بن جُبَيْرٍ في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[النور]، يَعْنِي: أَلا قُلْتُمْ مِثْلَ مَا قَالَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ، وَذَلِكَ أَنَّ سَعْدًا لَـمَّا سَمِعَ قَوْلَ مَنْ قَالَ فِي أَمْرِ عَائِشَةَ، قَالَ: سُبْحَانَكَ، هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، وَالْبُهْتَانُ الَّذِي يَبْهَتُ فَيَقُولُ مَا لَمْ يَكُنْ. [**مجمع الزوائد ٧/ ١٨٣ في التفسير (١١٢٠٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٣/ ١٤٤] وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف**].

فهذه نماذج من مواقف الصحابة ﷺ تدل على ورعهم وعفة ألسنتهم مما ينتج عن قوة إيمانهم وخشيتهم من الله تعالى». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩٥-٩٦**].

٢٣ ـ الذي تولى كبر الإفك هو ابن أُبي بن سلول رأس المنافقين ومشى خلفه مرضى القلوب:

يقول الشيخ عرجون: «وكان الذي تولى كبر هذا الإفك والبهتان وأشاعه واستوشاه هو الخبيث الفاجر رأس النفاق وزعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ـ لعنه الله ـ وجاراه في ذلك بعض من استزلهم الشيطان فاستحوذ على مكامن الإيمان من أنفسهم فغطاها بظلام وسوسته وضلالاته، وكانت فتنة عمياء، أصابت المجتمع المسلم بزلزلة هزت كيانه، ولم يكن الناس فيها سواسية، ولكنهم كانوا مختلفين، فأفصح بعضهم بعظيمة العظائم وقبيحة القبائح، وجمجم آخرون، وسكتت طائفة فلم تدر من شدة الدهش والذهول ما تقول، وكَعَّ بعض عن الإفصاح بالحق في تنزيه حليلة خير المرسلين الطاهرة أم المؤمنين ﷺ، وأنزل الله تعالى عقابه على من جبن وسكت ولم يدفع الإفك والبهتان عن ساحة الطهر والكمال، وادخر للذين صرحوا واستوشوا الافتراء والكذب يثيرونه كلما خبت ناره زادوها تسعيرًا.

أولئك هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض ممن لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم، وهم الذين كانوا يسمعون ولا ينكرون لضعف ثقتهم في أنفسهم لضعف إيمانهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧]». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٣**].

٢٤ ـ الأثر النفسي من علي كرم الله وجهه:

يقول الشيخ أبو زهرة: «يبدو من سياق القصة كما روتها أم المؤمنين عائشة ﵂ أن كلام علي ﵁ لم يقع من نفسها موقع الرضا، كما وقع كلام أسامة ﵁، وكما وقع كلام الصحابة الذين قالوا خيرًا.

وذلك لأن عليًّا ـ كرم الله وجهه ـ لم يكن في كلامه ما يرضي، ولكن كان في كلامه ما يكون سبيلًا لإنهاء الموضوع، ولكيلا يشغل النبي ﷺ بأمر عارض.

وما كان يرضي كلام علي عائشة؛ لأنه لم يشهد بالبراءة كما شهد غيره، ولعلها كانت ترى أنه أعلم ببراءتها أكثر من غيره من الصحابة؛ ولأن له بالبيت الذي هي فيه صلة، فشهادته تكون أقوى من شهادة غيره.

ولأنه كان ذلك لا يرضي مَنْ لها مكانة عائشة في قلب النبي ﷺ؛ لأنه قال: النساء غيرها كثيرات، وإن له أن يستخلف غيرها.

وإذا كان ذلك لم يرض البريئة الطاهرة، فإنه كان السبيل إلى صرف النبي ﷺ إلى التحقيق، ووراء التحقيق كان الاطمئنان الابتدائي، ثم كان وراءه الإبراء لها من النبي ﷺ ثم الإبراء لها من الله تعالى.

ولقد استرسل المؤرخون في ذكر ما بينها وبين علي كرم الله وجهه، حتى جعلوه سبب الخروج عليه في واقعة الجمل وقالوا ما قالوا في ذلك.

ونحن نقول إنه بلا ريب لم يرض علي ﵁ عاطفتها، ولكنها في ظني ما أبغضته، وإن خالفته على كلام في ذلك، وإن الدليل على أنها لم تبغضه أنه عندما نعي إليها ذهبت إلى قبر النبي ﷺ، وقالت: جئت أنعي إليك أحب أصحابك إليك، جئت أنعي إليك صفيك المجتبى، وحبيبك المرتضى، علي بن أبي طالب.

وما كان من شأنها أن تبغض أحب أصحاب رسول الله ﷺ إليه، فرضي الله عنها وكرم الله وجهه».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٣٧-٨٣٨].

٢٥ ـ ثمرة رأي علي ﵁ وفائدته:

يقول د/ أبو فارس: «وحين أشار علي ـ كرم الله وجهه ـ على رسول الله ﷺ بأن يتزوج غير عائشة، لا شك أن هذا آلم عائشة ﵂، ولكن عليًا ﵁ أراد تحقيق مصلحة أهم من مصلحة عائشة يحدثنا عنها ابن حجر ﵀ بقوله: «وَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي قَالَهُ عَلِيٌّ ﵁ حَمَلَهُ عَلَيْهِ تَرْجِيحُ جَانِبِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِمَا رَأَى عِنْدَهُ مِنْ الْقَلَقِ وَالْغَمِّ بِسَبَبِ الْقَوْلِ الَّذِي قِيلَ، وَكَانَ ﷺ شَدِيدَ الْغَيْرَةِ، فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّهُ إِذَا فَارَقَهَا سَكَنَ مَا عِنْدَهُ مِنْ الْقَلَقِ بِسَبَبِهَا إِلَى أَنْ يَتَحَقَّقَ بَرَاءَتُهَا فَيُمْكِنُ رَجْعَتُهَا، وَيُسْتَفَاد مِنْهُ اِرْتِكَابُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ لِذَهَابِ أَشَدِّهِمَا.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ ﷺ في شرحه على صحيح مسلم: «رَأَى عَلِيٌّ ﷺ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ المَصْلَحَةُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنْ انْزِعَاجِهِ، فَبَذَلَ جَهْدَهُ فِي النَّصِيحَةِ لِإِرَادَةِ رَاحَةِ خَاطِرِهِ ﷺ.

[شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٠٨].

وَقَالَ الشَّيْخ أَبُو مُحَمَّد بْن أَبِي جَمْرَة: لَمْ يَجْزِمْ عَلِيٌّ ﷺ بِالْإِشَارَةِ بِفِرَاقِهَا لِأَنَّهُ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «**وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ** «فَفَوَّضَ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ إِلَى نَظَرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ أَرَدْتَ تَعْجِيلَ الرَّاحَةِ فَفَارِقْهَا، وَإِنْ أَرَدْتَ خِلَافَ ذَلِكَ فَابْحَثْ عَنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ إِلَى أَنْ تَطَّلِعَ عَلَى بَرَاءَتِهَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّقُ أَنَّ بَرِيرَةَ لَا تُخْبِرُهُ إِلَّا بِمَا عَلِمَتْهُ، وَهِيَ لَمْ تَعْلَم مِنْ عَائِشَةَ إِلَّا الْبَرَاءَةَ المَحْضَةَ». [فتح الباري ١٠/ ٨٣]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٨-٦٩].

٢٦ ـ للإنسان أن يستشير أصدقاءه المقربين في أمر خاص به:

يقول د/ أبو فارس: «فلقد استشار النبي ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد ﷺ في فراق عائشة ﷺ، فأشار أسامة بإبقائها وأشار علي بالزواج من غيرها.

وقد يتساءل القارئ الكريم لم خص النبي ﷺ أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب بالاستشارة دون غيرهما من الصحابة؟

ويجيب العلامة ابن حجر ﷺ بقوله: «وَالْعِلَّةُ فِي اخْتِصَاصِ عَلِيٍّ وَأُسَامَةَ بِالْمُشَاوَرَةِ: أَنَّ عَلِيًّا كَانَ عِنْدَهُ كَالْوَلَدِ؛ لِأَنَّهُ رَبَّاهُ مِنْ حَالِ صِغَرِهِ ثُمَّ لَمْ يُفَارِقْهُ، بَلْ وَازْدَادَ اتِّصَالُهُ بِتَزْوِيجِ فَاطِمَةَ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ مَخْصُوصًا بِالْمُشَاوَرَةِ فِيمَا يَتَعَلَّق بِأَهْلِهِ لِمَزِيدِ اطِّلَاعِهِ عَلَى أَحْوَالِهِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِه، وَكَانَ أَهْلُ مَشُورَتِهِ فِيمَا يَتَعَلَّق بِالْأُمُورِ الْعَامَّةِ أَكَابِرَ الصَّحَابَة كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

وَأَمَّا أُسَامَةُ فَهُوَ كَعَلِيٍّ فِي طُولِ الْمُلَازَمَةِ وَمَزِيدِ الِاخْتِصَاصِ وَالمَحَبَّة؛ وَلِذَلِكَ كَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ حِبُّ رَسُول الله ﷺ؛ وَخَصَّهُ دُونَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ لِكَوْنِهِ كَانَ شَابًّا كَعَلِيٍّ، وَإِنْ كَانَ عَلِيٌّ أَسَنَّ مِنْهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ لِلشَّابِّ مِنْ صَفَاءِ الذِّهْنِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ؛ وَلِأَنَّهُ أَكْثَرُ جُرْأَةً عَلَى الْجَوَابِ بِمَا يَظْهَرُ لَهُ مِنْ الْمُسِنِّ؛ لِأَنَّ الْمُسِنَّ غَالِبًا يَحْسُبُ الْعَاقِبَةَ، فَرُبَّمَا أَخْفَى بَعْضَ مَا يَظْهَرُ لَهُ رِعَايَةً لِلْقَائِلِ تَارَةً وَالمَسْؤُولِ عَنْهُ أُخْرَى، مَعَ مَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَار أَنَّهُ اسْتَشَارَ غَيْرهمَا». [فتح الباري ١٠/ ٨٣]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٧-٦٨].

٢٧ ـ بيان فضل صفوان ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «تأمل قول الرسول ﷺ فيه: «**وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**».

إن هذه الشهادة من الرسول ﷺ تعتبر وسامًا يوشح به صدر صفوان ﷺ، وحق له أن يعيش الدهر جذلانًا به، إن القلب ينبغي أن يفعم بالسرور والحبور.

إذا كان الناس يفرحون لسماع كلمة مدح أو ثناء من إنسان عادي لهم، ويطيرون فرحًا إذا كان هذا الإنسان ذا مسؤولية أو مكانة مرموقة فيهم، وربما دونوا هذه الكلمات وعلقوها في بيوتهم إن كانت من ملك أو رئيس، فكيف الحال إذا كان المزكي رسول الله ﷺ سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ويؤكد هذه الشهادة بالقسم المؤكد، ألا يحق للذي زكاه رسول الله ﷺ أن يطير فرحًا حين يسمع هذه الشهادة، لاسيما وقد أكدها القرآن فبرأه مما افترى المفترون.

ألا فليهنأ صفوان بشهادة الرسول ﷺ له، وليحمل هذا الوسام يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيحظى بشفاعة سيد المرسلين عند رب العالمين، يوم لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه سبحانه».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٥-٦٦].

٢٨ ـ تأتي المنحة في المحنة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد خاطب الله ﷻ عائشة ووالديها والذين أوذوا في حديث الإفك بقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النور: ١١].

فكيف كان هذا خيرًا لأبي بكر ولزوجه ولابنته عائشة التي بكت حتى كاد قلبها ينفلق وفكرت بأن تلقي نفسها في بئر.

إنه مما لا شك فيه أن حديث الإفك تمخضت عنه آلام شديدة، وأحزان عميقة، ورغم هذا فقد كان فيه كل الخير للذين أوذوا، هكذا أخبر الله سبحانه، وخبر الله حق وصدق، نؤمن به، ونسلم برضا فيه، وإضافة إلى ذلك فإن الله ﷻ إذا أراد بعبد خيرًا ييسر له أبواب الخير؛ لينال الثواب الجزيل، ومن أبواب الخير هذه، أن الله يبتلي المؤمنين بما يحزنهم ويؤلمهم ليصبروا فينالوا ثوابه وجزاءه، ولقد ابتليت عائشة رضي الله عنها وأبو بكر وأم رومان رضي الله عنهما وغيرهم فصبروا فكان الخير للصابرين، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[البقرة]». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٦-٦٧].

٢٩ ـ التوبة تَجُبُّ ما قبلها:

يقول د/ أبو فارس: «وهذا يؤخذ من حديث الإفك، فقد جاء قول النبي ﷺ لعائشة: «**وَإِنْ كُنْتِ أَلَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**».

هذا هو المقرر في دين الإسلام بشكل واضح أن الإنسان إذا تاب إلى الله توبة نصوحًا فإن الله يغفر جميع ذنوبه وإن كانت من الكبائر، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾[الزُّمَر]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧٠-٧١].

٣٠ ـ السبب في عدم جَلْد ابن أُبي:

يقول الإمام ابن القيم: «وَلـمَّا جَاءَ الْوَحْيُ بِبَرَاءَتِهَا، أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَنْ صَرَّحَ بِالْإِفْكِ، فَحُدُّوا ثَمَانِينَ ثَمَانِينَ، وَلَمْ يَحُدَّ الْخَبِيثَ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ مَعَ أَنَّهُ رَأْسُ أَهْلِ الْإِفْكِ.

فَقِيلَ: لأَنَّ الْحُدُودَ تَخْفِيفٌ عَنْ أَهْلِهَا وَكَفَّارَةٌ، وَالخَبِيثُ لَيسَ أَهْلًا لِذَلِكَ، وَقَدْ وَعَدَهُ اللهُ بِالعَـذَابِ العَظِيمِ فِي الآخِرَةِ، فَيَكْفِيهِ ذَلِكَ عَنِ الحَدِّ.

وَقِيلَ: بَلْ كَانَ يَسْتَوْشِي الْحَدِيثَ وَيَجْمَعُهُ وَيَحْكِيهِ، وَيُخْرِجُهُ فِي قَوَالِبِ مَنْ لَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ: الْحَدُّ لَا يَثْبُتُ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ، أَوْ بِبَيِّنَةٍ، وَهُوَ لَمْ يُقِرَّ بِالْقَذْفِ، وَلَا شَهِدَ بِهِ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَذْكُرُهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، وَلَمْ يَشْهَدُوا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَذْكُرُهُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَقِيلَ: حَدُّ الْقَذْفِ حَقُّ الْآدَمِيِّ، لَا يُسْتَوْفَى إِلَّا بِمُطَالَبَتِهِ، وَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُ حَقٌّ لله فَلَا بُـدَّ مِـنْ مُطَالَبَـةِ الْمَقْذُوفِ، وَعَائِشَةُ لَمْ تُطَالِبْ بِهِ ابْنَ أُبَيٍّ.

وَقِيلَ: بَلْ تَرَكَ حَدَّهُ لِمَصْلَحَةٍ هِيَ أَعْظَمُ مِنْ إِقَامَتِهِ، كَمَا تَرَكَ قَتْلَهُ مَعَ ظُهُورِ نِفَاقِـهِ، وَتَكَلُّمِـهِ بِـمَا يُوجِـبُ قَتْلَهُ مِرَارًا، وَهِيَ تَأْلِيفُ قَوْمِهِ، وَعَدَمُ تَنْفِيرِهِمْ عَنْ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّـهُ كَـانَ مُطَاعًـا فِـيهِمْ، رَئِيسًـا عَلَـيْهِمْ، فَلَـمْ تُؤْمَنْ إِثَارَةُ الْفِتْنَةِ فِي حَدِّهِ، وَلَعَلَّهُ تُرِكَ لِهَذِهِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا.

مَنْ حُدَّ فِي حَدِيثِ الإِفْكِ: فَجُلِدَ مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَحَمْنَةُ بِنْـتُ جَحْـشٍ، وَهَـؤُلَاءِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ؛ تَطْهِيرًا لَهُمْ وَتَكْفِيرًا، وَتُرِكَ عَبْدُ الله بْن أُبَيٍّ إِذًا، فَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ ذَاكَ».

[زاد المعاد لابن القيم / ٢٦٣-٢٦٤].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «وهنا يرد سؤال: إن الذين تحدثوا حديث الإفك كانوا أكثر مـن ثلاثـة، فقـد تناول القول به غير الثلاثة، بل إن أم المؤمنين عائشـة ﵂ قالـت: إن الـذي تـولى كـبره عبـد الله بـن أُبي، فلماذا يقم الحد، إلا على هؤلاء الثلاثة؟

ونقول في الجواب عن ذلك: إن النبي ﷺ ذكر أن هؤلاء قد صرحوا بالرمي ويظهر أنه قام الدليل على أنهم تكلموا، ولم يقم الدليل على غيرهم.

ولكن أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت: إن الذي تولى كبره رأس المنافقين فكيف لا يُحد، وهو الآثم الأول؟

ونقول في الجواب عن ذلك: إنه بلا ريب هو الذي تولى كبر هـذا، بالتنبيـه عـلى مـا يسـهل عـلى غـيره الرمي، من غير أن يصرح بالرمي، ويدس الخبر في الناس بلحن القول من غـير تصرـيح، فيحمـل النـاس على أن يتكلموا، وهو لا يظهر الكلام إلا بين خاصته الذين يشيعون الإفك بتوجيه الأذهان إليـه مـن غـير

أن يصرحوا، فهم يوعزون بالقول، ولا يظهرون، ويدفعون غيرهم، ولا يتكلمون، وتلك حال المنافقين يسترون ولا يتكلمون، وبذلك تتحقق في غيرهم شروط إقامة الحد، ولا تتحقق فيهم، والله أعلم».
[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٣٨-٨٣٩].

ويقول د/ أبو فارس: «لم يجلد عبد الله بن أبي ابن سلول؛ لأن العقوبة تطهير للقلب والنفس من الآلام، وتطهير لها من عقوبة الآخرة، وهذا للمسلم بلسانه وقلبه، أما ابن سلول فهو كافر بقلبه، لم يرد الله أن يطهر قلبه، ويخفف عنه عقوبة الآخرة». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧٢].

ويقول الشيخ الغزالي: «والغريب أن الحد أُقيم على من ثبتت عليهم تهمة القذف، وهم (حسان بن ثابت) و(مسطح) و(حمنة)، أما (عبدالله بن أبي) مدبِّرُ الحملة وجرثومتها الخفية، فإنه كان أحذر من أن يقع تحت طائلة العقاب، لقد أوقع غيره ثم أفلت بنفسه». [فقه السيرة للغزالي ٣٠٣].

ويقول أ/ باشميل: «والغريب في الأمر أن كل الذين تعرضوا لعقاب الجلد ليس بينهم منافق واحد، بل كلهم مسلمون تأثروا بقوة الأراجيف فجرفهم تيار الإشاعات الكاذبة، فنطقوا بما أوقعهم تحت طائلة العقوبة من صريح الكلام في عرض زوج نبيهم الطهور.

ولقد نجا عبد الله بن أُبي وعصبته المنافقة من عقوبة القذف؛ لأن التهمة لم تثبت عليه قانونًا، بالرغم من أن الناس يعلمون في قرارة أنفسهم ويشعرون، ومنهم النبي الأعظم ﷺ أن المحرك الأول لحديث الإفك إنما هو هذا المنافق ابن أُبي وحزبه، ولكن الشعور والاعتقاد شيء، والقانون وإجراءاته الرسمية شيء آخر.

ولهذا نجا رأس النفاق وعصابته من العذاب، عذاب السياط التي أصابت غيرهم حدًّا؛ لأن هذا المنافق كان يعلم عقوبة القذف الصريح، فكان لذلك أحذر من أن يقع تحت طائلة القانون، بكلام صريح مشهود يفوه به من حديث الإفك الذي لم يكن له سواه باعثًا ومروجًا؛ ولهذا أفلت من العقوبة بعد أن أوقع غيره لينال عذابها». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٠٩-١١٠].

ويقول أ/ الشامي: «وقد لا يكون غريبًا أنه لم تثبت تهمة القذف على المنافقين الذين أشاعوا الخبر ورتبوه.. بينما أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش فضربوا حد القذف، ونجا المنافقون.. وما ذلك إلا لأن طبيعة النفاق العمل بعيدًا عن السطح، هكذا يتورط غيرهم وهم بعيدون».
[من معين السيرة للشامي ٣٤٨-٣٤٩].

٣١ ـ العفو خير من العقوبة:

يقول د/ أبو فارس: «كان أبو بكر ﷺ يُنفق على مِسطح بن أثاثة، وهو قريب له، ومع هذا لم يحفظ هذا الود، ولم يُقَدِّر هذا الصنيع، بل شارك في حديث الإفك وكرر كلامًا نال فيه من عائشة ﷺ، وهذا مؤلم

حقًّا، ويزداد هذا الألم إذا كان من القريب، نعم إنه ظلم مكروه ممجوج، ويقبح هذا ويزداد بشاعة إذا كان من ذوي القرابة.

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

لم يكن يخطر على بال أبي بكر ﷺ أن يقوم مسطح بالولوغ في عرض ابنته عائشة ﵂، ويشيع الفرية التي تسيء إليها، فلما تحقق كل ما لم يخطر على باله أقسم ألا ينفق على مسطح، فأراد الله ﷻ أن يُعلِم أبا بكر ﷺ وغيره من المسلمين أن العفو أفضل من العقوبة، ونهاه عن يمينه، وأمره بإعادة النفقة على مسطح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[النور].

فلما سمع أبو بكر ﷺ: ألا تحبون أن يغفر لكم؟ قال: بلى». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧٢-٧٣].

٣٢ ـ اختلاف الروايات في أسماء من صرح بالإفك ومن سمعه فلم يدفعه:

يقول الشيخ عرجون: «وقد اختلفت الروايات اختلافًا واسعًا في أسماء من أفصح بالإفك، ومن سمعه فلم يدفعه، ومن تضاحكوا لسماعه ولم يخوضوا فيه.

والذين دار ذكرهم في الروايات بأنهم شركوا فيه: هم عبد الله بن أُبي ابن سلول رأس النفاق وزعيم المنافقين، وهو تولى كِبْره، فأفصح به وصرح، وشقي وهلك بالافتراء والبهتان وقول الزور، وهذا قول عائشة ﵂، أخرجه البخاري من حديث الزهري، عن عروة.

قال القرطبي: وأخرجه أبو بكر الإسماعيلي في كتابه المخرج على الصحيح من وجه آخر من حديث مَعْمَر عن الزهري وفيه: قال كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال: الذي تولى كبره منهم علي بن أبي طالب؟ فقلت: لا، حدثني سعيد بن المسيب، وعروة، وعلقمة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، كلهم يقول سمعت عائشة ﵂ تقول: والذي تولى كبره عبد الله بن أُبي.

وأخرج البخاري أيضًا من حديث الزهري عن عروة عن عائشة: والذي تولى كبره منهم عبد الله بن أُبي. [تفسير القرطبي ١٥/ ١٦٣].

وكان هذا اللعين ابن سلول هو الذي يجتمع إليه فيه، ويستوشيه ويشعل ناره.

وذكر القرطبي أن حسان بن ثابت كان من قالته، وشرك مع القائلين مسطح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش، وقد سأل عبد الملك بن مروان عروة، فقال عروة: لم يُسم من أهل الإفك إلا حسان، ومسطح، وحمنة، وعبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين، وجُهل غيرهم، إلا أنهم كانوا عصبة.

[تفسير القرطبي ١٥/ ١٦٦].

وقد ذُكر عن عائشة في بعض الروايات أن الذي تولى كِبْره حسان بن ثابت، وهذا قول معارَض بقول عروة: كانت عائشة تكره أن يُسب حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٩-٢٣٠].

٣٣ ـ براءة حسان من الخوض في الإفك والإفصاح به وشعره في ذلك:

يقول الشيخ عرجون: «قال أبو عمر بن عبد البر: إن عائشة برأت حسان من الفرية، وقالت إنه لم يقل شيئًا، وأنكر حسان أن يكون قال شيئًا من ذلك في قوله من قصيدة يمدح بها عائشة رضي الله عنها التي سبق إيرادها.

وقد تعارض النقل في روايات صحيحة الأسانيد عن عائشة رضي الله عنها في حسان بالنفي والإثبات، ويُجمع بين قوليها فيه، أنه لم يقل إفصاحًا أو تصريحًا، وإنما لعله عرَّض بذلك وأومأ إليه في مجلس شاعري لا يتحفظ عند المسامرة، فنسب إليه أنه تكلم فيه وشارك.

تأويل ما أُبن به حسان في الإفك ومواقفه في الإسلام: والذي تميل إليه النفس لتعارض الروايات أن حسان رضي الله عنه جرى في مجالس الهالكين بالإفك على طريقة سمر الشعراء وأهل الأدب القولي، يتضاحكون بالكلمات والفكاهة والخبر الساخر، دون أن يقصدوا ما يتعلق بها، وهذا فيهم كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء]، ومن ثم جرى الخلاف فيه بين العلماء: هل خاض في الإفك وأفصح بالافتراء والبهتان أو كان يسمع ولا يدفع؟

وحسان رضي الله عنه له مواقف في الإسلام من أكرم وأشرف مواقف المجاهدين بلسانه في نصرة الدعوة الإسلامية منذ دخل في ساحة الإسلام مسلمًا مؤمنًا، محبًا للإسلام ونبيه ﷺ وأهله وآل بيته.

وكان في حياته المسلمة سيفًا مصلتًا على أعناق أعداء الإسلام من المشركين وشعرائهم ينافح عن رسول الله ﷺ، ويدافع عن أصحابه ودعوته، وقصائده الإسلامية في ديوانه تحتل مكانًا رحبًا وهي من غرر شعره.

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقول له: «**اهجهم وروح القدس معك**»، وكان ﷺ يسمع شعره ويُسر به، ويقول عن شعره في منافراته لشعراء المشركين: إنه أشد عليهم من رشق النبل.

ولو لم يكن له إلا همزيته التي يقول فيها ردًا على أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان من أشد أعداء النبي ﷺ قبل إسلامه لكفاه فخرًا في إسلامه:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

قال نَقَدة الشعر في هذا البيت: إنه أهجى بيت في شعر العرب، وأنصف بيت، وأنظف بيت، مع ما فيه من قارس الهجاء الوجيع.

رد ابن كثير التهمة عن حسان ﷺ: وقد رد ابن كثير قول من قال: الذي تولى كبر الإفك حسان، فقال: «وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله ﷺ بشعره وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «**اهْجُهُمْ ـ أَوْ هَاجِهِمْ ـ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ**». [**البخاري في بدء الخلق (٣٢١٣)، وفي المغازي (٤١٢٣)، وفي الأدب (٦١٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة** ﷺ **(٢٤٨٦)**].

[**تفسير ابن كثير ١٠/ ١٩٠**].

وحسب حسان من المآثر والمفاخر أنه انفرد في حياته الإسلامية بلقب شاعر الإسلام، وفي قصيدته التي زعم ابن إسحاق أنه هجا فيها صفوان بن المعطل يقول:

أَمَّا قُرَيْشٌ فَإِنِّي لَنْ أَسَالِمَهُمْ حَتَّى يُنِيبُوا مِنْ الْغِيَّاتِ لِلرَّشْدِ
وَيَتْرُكُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى بِمَعْزِلَةٍ وَيَسْجُدُوا كُلُّهُمْ لِلْوَاحِدِ الصَّمَدِ
وَيَشْهَدُوا أَنَّ مَا قَالَ الرَّسُولُ لَهُمْ حَقٌّ وَيُوفُوا بِعَهْدِ اللهِ وَالْوُكُدِ

ولا يرى فيها هجاء لمسلم لا تعريضًا ولا تصريحًا، ويروى أن صفوان ﷺ بلغه أن حسان يتكلم في الإفك، وأنه هجاه بشعره، فأخذته الحمية قبل أن يتثبت، واعترض حسان فضربه بسيفه ضربة إرعاب وتخويف، وقال له:

تَلَقَّ ذُبَابُ السَّيْفِ عَنِّي فَإِنَّنِي غُلَامٌ إِذَا هُوجِيتُ لَسْتُ بِشَاعِرِ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ التَّيْمِيُّ: إِنَّ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ وَثَبَ عَلَى صَفْوَانَ بْنِ المعَطَّلِ، حِينَ ضَرَبَ حَسَّانَ فَجَمَعَ يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ بِحَبْلٍ ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ إِلَى دَارِ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَلَقِيَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: أَمَا أَعْجَبَكَ ضَرْبُ حَسَّانَ بِالسَّيْفِ، وَاللهِ مَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ قَتَلَهُ، قَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ: هَلْ عَلِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَيْءٍ مِمَّا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَا، وَاللهِ، قَالَ: لَقَدْ اجْتَرَأْتَ، أَطْلِقِ الرَّجُلَ، فَأَطْلَقَهُ، ثُمَّ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَدَعَا حَسَّانَ وَصَفْوَانَ بْنَ المعَطَّلِ، فَقَالَ ابْنُ المعَطَّلِ: يَا رَسُولَ اللهِ! آذَانِي وَهَجَانِي، فَاحْتَمَلَنِي الْغَضَبُ فَضَرَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَسَّانَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ، أَتَشَوَّهْتَ عَلَى قَوْمِي أَنْ هَدَاهُمْ اللهُ لِلْإِسْلَامِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ فِي الَّذِي أَصَابَكَ**»، قَالَ: هِيَ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ ابْنُ هِشَام: وَيُقَالُ: أَبْعَدَ أَنْ هُدَاكُمْ اللهُ لِلْإِسْلَام.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْطَاهُ عِوَضًا مِنْهَا بَيْرُحَاءَ، وَهِيَ قَصْرُ بَنِي حُدَيْلَةَ الْيَوْمَ بِالمدِينَةِ وَكَانَتْ مَالًا لِأَبِي طَلْحَةَ بْنِ سَهْلٍ تَصَدَّقَ بِهَا عَلَى آلِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَعْطَاهَا رَسُولُ الله ﷺ حَسَّانَ فِي ضَرْبَتِهِ وَأَعْطَاهُ سِيرِينَ، أَمَةً قِبْطِيَّةً، فَوَلَدَتْ لِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَسَّانَ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٠٥-٣٠٦].

وكان يفتخر بأنه ابن خالة إبراهيم ولد رسول الله ﷺ.

هذا الموقف الكريم من النبي ﷺ، وفيه هذا التصرف الرحيم مع حسان ﷺ يتنافى كل المنافاة مع رواية من زعم أن عائشة ﷺ قالت: الذي تولى كبر الإفك حسان؛ لأنه لا يعقل أن يكون حسان هو الذي تولى كبر الإفك والافتراء على الطاهرة المطهرة أم المؤمنين عائشة ﷺ وهي أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، ثم يلقى من رسول الله ﷺ هذا العتاب المتلطف مع الإكرام المشرف بإهدائه أخت أم ولده إبراهيم عليه السلام، وبستانًا خرير الماء، كثير الثمر، هذا بعيد جدًّا». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٠-٢٣٢].

٣٤ ـ تأويل موقف مسطح وتبرئته من الإفصاح بالإفك:

يقول الشيخ عرجون: «وأما مسطح بن أثاثة ﷺ فإنه وإن ذُكر مع من سُمي من أهل الإفك في قول عروة مجيبًا لسؤال عبد الملك بن مروان، ولكنه لم يثبت عنه الإفصاح والتصريح والموجبان لحد الفرية والقذف، وأقصى ما يتصور في موقفه أنه كان يسمع، ويشارك بالكلمة المومئة من غير تصريح، ويدل لذلك أنه نفى عن نفسه أن يكون قال شيئًا ـ أي تصريحًا ـ كما يدل عليه قول أبي بكر الصديق ﷺ في رده على اعتذار مسطح بأنه لم يقل شيئًا: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل، فقال مسطح: إنما كنت أغشى مجالس حسان، فأسمع ولا أقول شيئًا.

قال القشيري ـ كما حكاه عنه القرطبي ـ: فأما مسطح فلم يثبت عنه قذف صريح، ولكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح.

وقد قدمنا أن الذي كان يقال في مجالس حسان إنما هو نوع من السمر والتضاحك والتغامز بالأحداث التي تشغل المجتمع، ويشهد لذلك شعر حسان أن يكون قد قال شيئًا، وقد برأته عائشة ﷺ عن الإفصاح والتصريح». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٢-٢٣٣].

٣٥ ـ لم يثبت عندنا شيء عن إفصاح حمنة بالإفك:

يقول الشيخ عرجون: «وأما حمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش ﷺ فهي امرأة كغيرها من عامة النساء، تغلب عليها العاطفة والحمية، وكانت ترى من فضل عائشة ﷺ ومنزلتها عند رسول الله ﷺ، وعنده أختها السيدة النبيلة زينب بنت جحش ﷺ، وهي التي كانت

تسامي عائشة من بين نساء النبي ﷺ، ولكنها لم تكن تلحقها، فلما أرجف المنافقون بحديث الإفك، واستوشوه في مجالسهم، وأذاعوه على الأسماع، وأفصحوا به وصرحوا، وكانت مجالس مآنس لمرضى القلوب من ضعفة المسلمين الذين لم تشرب قلوبهم حب الإيمان، وهؤلاء كانوا مغمورين في المجتمعات لا يُعرفون إلا لمامًا، فلم يقم لهم وزن في حضورهم ولا في غيابهم.

ولعل حمنة كانت من اللائي يسترقن السمع من النساء المنافقات وبيوتهن، فتسمع حديث الإفك، وتستطعمه وتستعيده حمية لأختها السيدة التقية أم المؤمنين زينب رضي الله عنها.

وشهر ذلك من أمر حمنة، وذاع في الناس أنها قالت في الإفك، ولم يثبت عندنا في رواية ثابتة أنها أفصحت وصرحت بما يوجب إقامة الحد على المفتري الكذاب.

وكل ما ثبت هو ذكر اسمها مع من زُعم عليهم من المؤمنين أنهم قالوا ما قيل في الإفك، دون تعيين لقول على نحو ما ثبت عن الخبيث اللعين رأس النفاق وزعيم المنافقين، عبد الله بن أُبي بن سلول الذي صرح بأخبث ما افتُري من البهتان والإفك». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٣-٢٣٤].

٣٦ ـ لم يثبت عندنا أن أحدًا من خُلَّص المؤمنين صرح بالإفك:

يقول الشيخ عرجون: «وبهذا التحقيق يتضح أننا نرى أنه لم يثبت عندنا اشتراك أحد من خُلَّص المسلمين المؤمنين في حديث الإفك تصريحًا يوجب حد القذف، وإنما الذي كان إنما هو إرجاف من المنافقين، ومرضى القلوب، أفصحوا في إرجافهم عن الافتراء والبهتان والإفك، وهم الذين كانوا يجتمعون له، يستوشونه ويشعلون لهيبه ليحزنوا الذين آمنوا، ويدخلوا عليهم من الفتنة والشك ما يشغلهم عن نشر دعوتهم، وتبليغ رسالتهم، وليسيؤوا إلى رسول الله ﷺ في أحب الناس إليه، بألأم ما عُرف من لؤم الطبائع البشرية وأخبث ما تلوث به سيرة أطهر الطاهرات، وأفضل الفضليات.

وقد أخبرنا الله تعالى أنه كان في المجتمع المسلم سماعون للمنافقين، نمامون، يسمعون أكاذيبهم فينشرونها بين الناس؛ ليثيروا الفتن، ويسمعون من المؤمنين أحاديثهم فينقلونها إليهم.

وهؤلاء السماعون النمامون هم الوصائل الخبيثة لنقل الحديث وإشاعة السوء في المجتمعات، فلا يبعد أن يكون المنافقون قد أوحوا إلى هؤلاء السماعين كما توحي الشياطين إلى أوليائهم أن يبثوا أكاذيب الإفك في مجالس المؤمنين؛ ليتلقفها منهم ضعفاء الإيمان، ويتلقوها بألسنتهم، متضاحكين، يسترضون بها عواطف الحمية العصبية بسماعها وإذاعتها، وبهذا الطريق الخبيث من كيد المنافقين تنوقل حديث الإفك من بيوت ومجالس المنافقين إلى مسامع المؤمنين في مجالسهم، فجمجم به الهزأة الساخرون الذين يلقون الحديث فلا يبالون بما فيه، واستطعمه بعض الضحكة الهازلين، يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

وأما قوله تعالى: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ في قولـه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النـور: ١١] فالخطـاب فيه للمجتمع المسلم كله بما فيه من صادقي الإيمان، وبما فيه من المنافقين ومرضى القلوب والسـماعين للمنافين النمامين الناشرين للإفك والبهتان.

وقد ذكر الزمخشري مع عبد الله بن أبي من المنافقين زيد بن رفاعة وفي روايـة عـن عـروة بـن الـزبير أن المشتركين في حديث الإفك كثيرون، وقد سماهم الله عصبة، ولم يسم مـنهم إلا مـا علـم، وجُهـل البـاقون فلم يُذكروا، ولو أن أحدًا من الرواة عني بالبحث عن أهل الإفك لوصل إلى أن حديث الإفك حبكـة مـن نسج النفاق وخبث المنافقين، الذين لم يقع في حبائلهم إلا مرضى القلوب والسماعون النمامون.

ويرشح ما ذهبنا إليه أن العلماء اختلفوا: هل حُدَّ أحدٌ من أهل الإفك؟ حكى المـاوردي في ذلـك قولين بالنفي والإثبات.

والمسألة لم يثبت فيها حديث صحيح يرفع الشك ويوجب اليقين، فالله تعالى أعلم بما كان».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٤-٢٣٥].

٣٧ ـ تناول سيرة الصحابة رضي الله عنهم ينبغي أن يكون قائمًا على تحري الحق الصريح:

يقول الشيخ عرجون: «ونحن ندين بأن سيرة أصحاب رسول الله ﷺ لها قبس من نور سيرته ﷺ، فكما يجب في تناول سيرته ﷺ أن يكون هذا التناول قائمًا على البحث المتعمق والتحقيق الممحَّص ـ فلا يقبل فيه إلا ما ثبت ثبوتًا بينًا، بالدليل والحجة سندًا وتفقهًا، ولفظًا ومعنى ـ يجب في تناول سيرة أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ أن يكون هذا التناول مستهدفًا للحق الذي لا افتراء فيه، ولا يكفي في القول به وجوده في روايات متعارضة، قد يصح سند بعضها، ولكن متونها وحقائقها ومعانيها قد تتعارض مع ما عُرف عن المجتمع المسلم إذ ذاك من التوقف في قبول المظنونات في غير الأحكام الجزئية التعبدية فضلًا عن مطارح المشكوكات المريبة.

وليس هذا منا ميلًا إلى عصمة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عن الخطأ والمخالفة، ولكنه جنوح منا إلى القول بوجوب التثبت فيما يُنقل من سيرتهم وأحداث حياتهم، وليس أحد من البشر معصومًا سوى أنبياء الله ورسله، حفظًا لشرائع الله وأحكامه، حتى لا يتعبد الناس إلا بما شرعه الله.

والذي أدخل علينا الاشتباه في أمر حمنة موقفُ أختها أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، ذلك الموقف النبيل من قصة (الإفك) وقد سألها رسول الله ﷺ: «ماذا علمت أو رأيت؟» فأجابت بما أملاه عليها ورعها في دينها وتقواها في إيمانها، وأخبرت عن الطاهرة المطهرة أم المؤمنين عائشة رضوان الله عنهما، فقالت: والله ما علمت إلا خيرًا، إذ كيف يكون هذا الموقف النبيل من أم المؤمنين زينب بنت

جحش أخت حمنة، ثم تسمع زينب أن أختها حمنة تطلق لسانها في البهتان المفترى، تحارب لها في هذا الموقف الآثم ـ كما تقول الرواية ـ ولا يُعرف عن زينب ولو في رواية واحدة أنها زجرت أختها حمنة عن الخوض في هذا الباطل والإثم المفترى لتردها عنه، قيامًا بما تعلم من براءة عائشة ﵂، وحماية لحرمة رسول الله ﷺ، والروايات عُرضة للزيادة والنقص في عباراتها، وعُرضة للوهم في ألفاظها وأسلوبها، وعُرضة للسكوت حيث لا يحسن السكوت، ولم نر رواية أخرجت حمنة عن الخوض في (الإفك) أو رواية نفت عنها الحد فيمن حد على قول من قال بإقامته عن الخائضين فيه».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٠-٢٤١].

٣٨ ـ تصوير القرآن للموقف بأسلوب إعجازه وروعته:

يقول الشيخ عرجون: «والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ـ التي نزلت في حديث الإفك ـ على ضوء ما قالت عائشة ﵂ في رواية الصحيح يرى أنها جاءت بأكفأ وأربى في التشريف والحفاوة والمنافحة عن حرم رسول الله ﷺ وتنزيه ساحتها، وتعزية المجتمع المسلم وتسلية رسول الله ﷺ فيما أصابه من البلاء وشدة المحنة، وفيما جاء به أعداء الله، وأعداء رسوله وأعداء أهله، وأعداء دينه، ورسالته من المنافقين ومرضى القلوب، الحاسدين المحنقين والمتلقفين الأباطيل والأكاذيب من ألسنة الفجرة المتقولين، وأفواه المرجفين، تعظيمًا لقدره ﷺ، وصونًا لساحته أن يكون متنزلًا للبهتان المفترى، وإعزازًا لأحب الناس إليه أن يحوم حول حمى شرفها وطهرها رشح من نزيز الحاقدين». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٥].

٣٩ ـ آية من البلاغة الزمخشرية في تفسير آيات الإفك والبراءة:

وفي تصوير ما اشتملت عليه الآيات التي برئت بها عائشة ﵂ أفرغ الزمخشري سواد عيون براعته البيانية مدادًا لقلمه، فأحسن وأبدع، وسما إلى ذروة الإعجاز في الكلام البشري إنصافًا وانتصافًا، ومعرفة لمنازل البلاغة من الكلام، فقال: «ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما رُكب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه.

ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها؛ حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ فأوجز في ذلك وأشبع، وفصَّل وأجمل، وأكد وكرَّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر...

وعن ابن عباس ﷺ أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يُسأل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات فقال: من أذنب ذنبًا ثم تاب منه قبلت توبته، إلا من خاض في أمر عائشة، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك.

ولقد برَّأ الله تعالى أربعة بأربعة: برَّأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، وبرَّأ موسى عليه السلام من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرَّأ مريم عليها السلام بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها: إني عبد الله، وبرَّأ عائشة ﷺ بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر.

مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر، كم بينها وبين تبرئة أولئك؟ وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم، وخيرة الأوَّلين والآخرين، وحجة الله على العالمين.

ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ وتقدُّم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق، فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمَّل كيف غضب الله في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه».

[الكشاف للزمخشري ٤/ ٢٨٠-٢٨١].

٤٠ ـ طبيعة الحادث وملابساته:

يقول أ/ دويدار: «لقد كان هذا الحادث في ذاته أمرًا عاديًّا غير جدير بأن يثير شبهة أو شكًّا، فإنه لم يزد في وضعه الطبيعي على أن سيدة فاتها الركب دون علم منها ولا منهم، فأدركها تابع الركب فأجارها حتى ردها إلى مأمنها، فكان صنيعه معها صنيع الرجل الذي يؤدي واجبه لأنه واجب، فإن لم يكن واجبًا فإنه مروءة ينبعث إلى فعلها الرجل الكريم من تلقاء نفسه، وفي كلتا الحالتين لم يكن ينبغي أن يكون هناك مجال للشك في أمرها وأمره؛ لأنه أمر طبيعي تمليه ظروف البيئة وطبيعتها.

وقد هاجرت من قبل أم سلمة من مكة إلى المدينة وليس معها إلا وليدها الطفل، فلما رآها **عثمان بن طلحة** على هذه الحال، أبت عليه المروءة ـ وهو مشرك ـ أن يتركها وحدها في هذه المتاهة، فاصطحبها في رحلتها حتى أوصلها إلى المدينة ثم عاد، فما تحدث أحد من أهل المدينة في شأنها ولا في شأن عثمان، على رغم أن عثمان كان لا يزال مشركًا وعدوًّا للإسلام والمسلمين.

ورغم ما كان في تلك الرحلة من سعة الوقت وتعدد الفرص لمن أراد أن ينتهز فرصة؛ ذلك أن الشهامة العربية تقضي على الرجل أن يحمي المرأة حين لا حامي لها ولو كانت من رعاع الناس، فكيف وعائشة زوج رسول الله ﷺ، وعقيلة بيت النبوة، وسليلة بيت أبي بكر ﷺ، ذلك البيت الذي ما عُرفت له سَقطة قط في الجاهلية حتى تُعرف عنه في الإسلام؟ وكيف وصفوان ﷺ رجل يؤمن بالله ورسوله،

ويعتنق مبادئ الإسلام الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر؟ وكيف وهو بعد ذلك رجل عربي فيه شهامة العرب ومروءتهم وسمو نفوسهم؟

كان حقد ابن أُبي هو السبب في هذه الفرية: لكنه الحقد والحسد والضغينة أكلت قلب عبد الله بن أُبي، وملأته غيظًا على الإسلام ورسوله ﷺ، ودفعت به إلى هذا الموقف الدنيء، كما دفعت به من قبل إلى مواقف أخرى تكشف كلها عن خُبث نيته وسوء قصده، فقد عاد ابن أُبي من هذه الرحلة مغيظًا محنقًا بسبب ما لقي في مكيدته تلك من إخفاق، وما أصابه بسببها من مذلة وهوان، فدخل المدينة ونفسه تفور من الغيظ على رسول الله ﷺ، فجعل يتلمس فرصة ينفس بها عن نفسه، فما كاد يرى عائشة وصفوان عائدين على فترة من الركب، حتى وجدها أحسن فرصة يطلق فيها الوشاية، ويُشعل الفتنة التي عجز عن إشعالها بين المهاجرين والأنصار بسبب الأجيرين، فراح يطلق لسانه بالإفك في عائشة «عسى أن يُوقع بين النبي ﷺ وأقرب الأصدقاء إليه أبي بكر الصديق ﷺ، أو يفلح في تشكيك المسلمين في كرامة نبيهم ﷺ، أو يقيم بين قومه الخزرج وسائر المسلمين شغبًا يقعون فيه عصبية له وأنفة من هوانه، فينتقض أمر الإسلام من أوس وخزرج وأنصار ومهاجرين». [**الصديقة بنت الصديق** ﵂ **للعقاد ٧٥**].

لقد كانت ظروف الرحلة وملابساتها كلها تدعو إلى العجلة: «وكان مسير الجيش في عودته من هذه الغزوة مضطربًا أشد اضطراب؛ لشيوع الفتنة بين المسلمين وأتباع عبد الله بن أبي»، وكان النبي ﷺ معجلًا ليشغل الناس عن الحديث في أمر هذه الفتنة، حتى جعل ﷺ يضرب راحلته بالسوط في مراقيها ليستعجلها، فلم يكن من العجب أن يفوت الركب عائشة في هذه الأوبة العاجلة، دون أن يفطن أحد إلى تخلفها وانقطاعها عن الركب، ولكنه الغرض الدنيء والخصومة الوضيعة هبطا بابن أُبي إلى أحط دركات الخساسة، فأطلق هذه الفرية التافهة، وأشاع هذه الكذبة الدنيئة، فتلقفها أُناس على شاكلته من المنافقين وأشاعوها في كل ناحية، حتى امتلأت بها الأسماع وتداولتها الألسن، وتحدَّث بها من لا يدرك ما وراءها من الأغرار والبلهاء.

هذه فرية لا تجوز حتى على امرأة ساقطة: هذه فرية ما كان ينبغي أن تجوز حتى على امرأة ساقطة، إذ لا يمكن لامرأة ـ مهما يكن من حمقها وسفاهتها ـ أن تجاهر بأمرها هذه المجاهرة، وأن تأتي هكذا في وضح النهار ومعها رفيقها، فتكشف ما خفي من مستور أمرها، وتعلن على أعين الناس أنها قد أتت ما أتت وفعلت ما فعلت، فإن في غريزة المرأة ـ مهما سقطت ـ نزوعًا طبيعيًّا إلى التجمل للناس والظهور أمامهم في أكمل مظهر تستطيعه، حتى لا يزهد الناس فيها ـ على الأقل ـ إذا هي عالنت بحقيقتها.

فهل يكون من الجائز أن تجاهر بمثل هذا عائشة أم المؤمنين والمثل الأعلى للمؤمنات؟ أما كان لها مزدجر في قوله تعالى لها ولصواحبها من نساء النبي ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ

يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ۞ [الأحزاب] أفما كانت تخشى أن يحل بها غضب الله وعقابه، وأن تسقط عن هذه المنزلة التي رفعها الله إليها وكرمها بها؟.. أفما كانت تستحي أن تدنِّس طُهر هذا البيت الذي يتنزل فيه الوحي وتغشاه الملائكة، أو تحسب حسابًا لسمعة بيتها وكرامه أبويها؟

الحق أنها كانت فرية ساقطة، وكذبة لا يقرها عقل ولا دين ولا ذوق، ولا يقبلها منطق البيئة ولا ظروف المجتمع وإن أقاموا عليها ألف دليل ودليل، فكيف «وليس لها سند ولا شبهة إلا أن عائشة رضي الله عنها تأخرت في الطريق هنيهة حين تحرك العسكر على حين فجأة، في رحلة كانت كلها كثيرة المفاجآت في مواعيد النزول والرحيل؟ تلك شبهة لا تكفي للشك في امرأة من عامة المسلمين الخارجين للجهاد في حضرة نبي الإسلام ﷺ، إذ لو كانت كل امرأة تتأخر في الطريق تؤخذ بالتهمة في دينها وعرضها، لكانت التهم في الأعراض أهون شيء يخطر على بال». [الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها للعقاد ٧٨].

القرآن يكذب الفرية ويجعلها محورًا للتشريع في صيانة الأعراض: من أجل هذا لم يكتف القرآن بتكذيب الفرية ونفي التهمة عن عائشة، بل عالج الموقف من جميع نواحيه علاج الحكمة البالغة، التي تصون للأعراض الطاهرة حرمتها، وتقطع على الألسنة الكاذبة طريقها، وتحفظ للمجتمع الإسلامي سمعته وكرامته.

الزنا جريمة دنسة لا يمكن أن يأتيها المؤمن: فقد بدأت آيات سورة النور بتحديد العقوبة الزاجرة لجريمة الزنا، وأمرت بإيقاعها على الزناة بلا شفقة ولا رحمة، وأن يكون ذلك بمشهد من الناس ليكون موعظة لهم، لأنها جريمة دنسة، بالغة الأثر في إفساد المجتمع وإهدار الكرامة، لا يمكن أن يأتيها إلا أهلها من الناس، ممن خبثت نفوسهم أو تلوثت عقيدتهم، أما المؤمنون فهم بحكم إيمانهم وتقواهم أبعد الناس عن هذه الجريمة الدنسة: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [النور].

الذين يتكلمون في أعراض الناس بغير علم يُعاقبون وتهدر كرامتهم:

ثم أعقبت ذلك بتحصين المجتمع الإسلامي من شر أولئك الفساق الذين يَلِغون في أعراض الناس بغير علم، ويهدرون كرامات البيوت بغير إثم، فألزمتهم بإقامة الدليل القاطع، والبرهان الذي لا يقبل

الشك على صدق ما يتقولون به على الناس، فإن لم يستطيعوا أن يقدموا هذا الدليل فلهم العقاب الرادع والهوان اللاذع والكرامة المهدرة، حتى يتوبوا عن الخوض في أعراض الناس.. حتى الأزواج أنفسهم لا بد لهم أن يقيموا هذا الدليل إذا رموا زوجاتهم بالفاحشة، فإن لم يستطيعوا كان عليهم أن يؤكدوا ذلك بالأيمان المغلظة، يُشهدون الله فيها على أنهم صادقون غير كاذبين، وللزوجة بعد ذلك أن تدرأ عن نفسها، وأن تُعارض هذه الأيمان بأيمان مثلها، وتُشهد الله على أن زوجها فيما رماها به كاذب غير صادق: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾ [النور].

على المؤمنين أن يحسنوا الظن بإخوانهم وألا يندفعوا وراء الأراجيف: وبعد ذلك عرضت الآيات حديث الإفك، فوصفته بأنه فريةُ عُصْبَة كاذبة أرادت به الشر للمسلمين وأراد الله به الخير لهم، وأن الله لابد آخذ هؤلاء الكذبة بذنوبهم: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور].

وهنا ألقت الآيات على المؤمنين درسًا بالغًا فيما كان ينبغي أن يتأدبوا به في مثل هذه الحادثة الخطيرة، فقد كان على المؤمنين أن يُحسنوا الظن بإخوانهم المؤمنين والمؤمنات، وألا يصدقوا هؤلاء الكاذبين حتى يقيموا الدليل القاطع على ما أرجفوا به من هذا الإفك، وألا يجاروا السفهاء فيما يشيعون من ذلك البهتان العظيم، وأن يعصموا ألسنتهم من الخوض فيه، ثم حذرتهم أن يعودوا لمثله أبدًا، وأن يعملوا على إشاعة الفاحشة في مجتمعهم، فإن ذلك من عمل الشيطان، وذكَّرتهم بما تفضل الله به عليهم من نعمة الإيمان التي تعصمهم من الزلل، وبما كان منه سبحانه من العفو عن أخطائهم، وطلبت إلى أولي الفضل منهم أن يغفروا لمن أساء إليهم في هذا السبيل، وألا يقطعوا عنهم بسبب هذه الإساءة ما تعودوا أن ينالوهم به من الفضل والإحسان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور].

قداسة الأعراض: ولما كانت الأعراض أعظم شيء ينبغي أن يُصان، وكان حديثها أشهى حديث إلى نفوس الفساق والمستهترين، وكان الخوض فيها يُعرض سمعة المجتمع وكرامات الناس للضياع... عادت الآيات إلى التحذير الشديد من الرجم في الأعراض بالغيب، ولعنت الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات في الدنيا والآخرة، وتوعدتهم بالعذاب العظيم يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور].

كلٌّ يعمل على شاكلته: ثم خُتم الموضوع كله بهذه القاعدة الاجتماعية العامة، التي تهدم التهمة من أساسها، والتي تصلح ميزانًا للحكم على كل فرد وعلى كل جماعة في كل زمان ومكان: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور].

وهكذا كلٌّ يعمل على شاكلته، وكل إناء بما فيه ينضح، فللخبائث أهل الخبائث وللطيبات أهل الطيبات، ولا ينضح الطيب إلا طيبًا ولا ينضح الخبيث إلا خبيثًا، و «**النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**».

[**البخاري في الأنبياء (٣٣٨٣)، ومواضع أخرى، ومسلم في فضائل الصحابة** ﷺ **(٦٦١٥) ومواضع أخرى**].

ليس للمؤمن إذن أن يُصدِّق أو يكذِّب ما يسمعه عن أخيه المؤمن، إلا بعد أن يدرس الظروف والملابسات، ويلاحظ الأسباب والنتائج، ويتعرف طبيعة الشخص ومعدنه، والبيئة التي نشأ فيها، والأصل الذي تفرَّع منه، والدوافع التي أحاطت به فدفعته إلى فِعل ما فعل أو ترك ما ترك.. أما أن ينساق مع الإشاعات وينقاد للأراجيف فليس هذا من الحكمة ولا من الإنصاف، وهذا ما أخذه الله سبحانه على بعض المؤمنين في حادث الإفك، وما حذرهم أن يعودوا إليه في قوله سبحانه: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور].

شدد القرآن في أمر هذه الفرية: هذه حادثة الإفك كما صورها القرآن الكريم، وفي ظروفه شرع الله ما شرع من الحدود؛ لحماية المجتمع الإسلامي من جريمة الزنا، ومن جريمة القذف في أعراض المؤمنات،

وشدَّد ما شدد في إثبات هذه الجريمة المنكرة، حتى لا يُؤخذ البرآء فيها بفرية مفتر أو إرجاف مرجف، وحتى لا تكون أعراض الناس هدفًا لكل رام، وعُرضة لكل أفَّاك أثيم.

وقد يقول قائل: وهل من الممكن أن يأتي المرء بأربعة شهداء لإثبات حالة الزنا على كل رجل وامرأة؟ وهل من الممكن أن يتأتى ذلك في كل حالة؟ وهل من المعقول ألا تثبت الجريمة إلا برؤية الشهود الأربعة، وإجماعهم على وقوعها وشهودها بأعينهم؟ أليس ذلك تكليفًا بما هو في حكم المستحيل، وتعجيزًا عن إثبات هذه الجريمة الشنعاء في حال من الأحوال؟.. بلى، قد يكون ذلك متعذرًا وقد يكون مستحيلًا، ولكن المشرِّع لاحظ في هذه الناحية أمورًا لها خطرها واعتبارها.. لاحظ أن هذا أمر يتصل بأعراض الناس وكراماتهم، وأن ناحية العرض ناحية حساسة، شديدة التأثر بكل ما يمسها من كلام الناس إن صدقًا وإن كذبًا، ولاحظ أن في طبيعة الناس سرعة التصديق لهذه الإشاعات وسرعة العمل على إذاعتها، وأنها أشهى الأحاديث إلى نفوسهم، وأكثرها جريانًا في مجالسهم، ولاحظ أنها تتصل اتصالًا وثيقًا بسمعة المجتمع الإسلامي، وهو المجتمع الذي ينبغي أن يكون مثالًا في طُهره ونظافته وسمعته الطيبة.

ومن أجل ذلك وضع المشرِّع هذه الحواجز القوية، وأقام هذه الحصون التي يتعذر اقتحامها؛ ليصون بها أعراض المؤمنين والمؤمنات، ويقطع بها ألسنة السفهاء والمفترين، ويحفظ بها للمجتمع الإسلامي سمعته وكرامته، وليضع بها للمسلين دستورًا قويًا، يدعوهم إلى التروي والاحتياط عند سماع هذه الأخبار، وإلى التبيُّن والتثبُّت من كل ما يُقال فيها، ويحول بينهم وبين ما جرى عليه سائر الناس من تصديق الإشاعات وترويج الأكاذيب بغير علم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات]. [صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ١٦٨-١٧٥].

٤١ ـ أضخم معركة يخوضها الرسول ﷺ:

يقول صاحب الظلال: «وهكذا عاش رسول الله ﷺ وأهل بيته، وعاش أبو بكر ﷺ وأهل بيته، وعاش صفوان بن المعطل ﷺ، وعاش المسلمون جميعًا هذا الشهر كله في مثل هذا الجو الخانق، وفي ظل تلك الآلام الهائلة، بسبب حديث الإفك الذي نزلت فيه تلك الآيات.

وإن الإنسان ليقف متململًا أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة في حياة الرسول ﷺ، وأمام تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشة ﵂ زوجه المقربة، وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة، تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة والرفرفة الشفيفة.

فها هي ذي عائشة ﵂ الطيبة الطاهرة، ها هي ذي في براءتها ووضاءة ضميرها، ونظافة تصوراتها، ها هي ذي تُرمى في أعز ما تعتز به، تُرمى في شرفها، وهي ابنة الصديق الناشئة في العش الطاهر الرفيع،

وتُرمى في أمانتها، وهي زوج محمد بن عبد الله من ذروة بني هاشم، وتُرمى في وفائها، وهي الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير، ثم تُرمى في إيمانها، وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام، من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة، وهي زوج رسول الله ﷺ.

ها هي ذي تُرمى، وهي بريئة غارة غافلة، لا تحتاط لشيء، ولا تتوقع شيئًا، فلا تجد ما يبرئها إلا أن ترجو في جناب الله، وتترقب أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا، تبرئها مما رميت به، ولكن الوحي يتلبث ـ لحكمة يريدها الله ـ شهرًا كاملًا، وهي في مثل هذا العذاب.

ويا لله لها وهي تفاجأ بالنبأ من أم مسطح، وهي مهدودة من المرض، فتعاودها الحمى، وهي تقول لأمها في أسى: **سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟** وفي رواية أخرى تسأل: **وقد علم به أبي؟** فتجيب أمها: نعم! فتقول: **ورسول الله ﷺ؟** فتجيبها أمها كذلك: نعم!

ويا لله لها ورسول الله ﷺ نبيها الذي تؤمن به ورجلها الذي تحبه، يقول لها: «**يَا عَائِشَةُ! فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»، فتعلم أنه شاك فيها، لا يستيقن من طهارتها، ولا يقضي في تهمتها، وربه لم يخبره بعد، ولم يكشف له عن براءتها التي تعلمها ولكن لا تملك إثباتها، فتمسي وتصبح وهي متهمة في ذلك القلب الكبير الذي أحبها، وأحلها في سويدائه!

وها هو ذا أبو بكر الصديق ﷺ ـ في وقاره وحساسيته وطيب نفسه ـ يلذعه الألم، وهو يُرمى في عرضه، في ابنته زوج محمد ﷺ ـ صاحبه الذي يحبه ويطمئن إليه، ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل، لا يطلب دليلًا من خارجه ـ وإذا الألم يفيض على لسانه، وهو الصابر المحتسب القوي على الألم، فيقول: **والله ما رمينا بهذا في جاهلية، أفنرضى به في الإسلام؟** وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل، حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة: **أجب عني رسول الله ﷺ**، قال في مرارة هامدة: **والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ!**

وأم رومان ـ زوج الصديق ﷺ وهي تتماسك أمام ابنتها المفجوعة في كل شيء، المريضة التي تبكي حتى تظن أن البكاء فالق كبدها، فتقول لها: **يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلَّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها**، ولكن هذا التماسك يتزايل وعائشة تقول لها: أجيبي عني رسول الله ﷺ، فتقول كما قال زوجها من قبل: **والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ!**

والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله صفوان بن المعطل ﷺ، وهو يُرمى بخيانة نبيه في زوجه، فيُرمى بذلك في إسلامه، وفي أمانته، وفي شرفه، وفي حميته، وفي كل ما يعتز به صحابي، وهو من

ذلك كله برىء، وهو يفاجأ بالاتهام الظالم وقلبه بريء من تصوره، فيقول: **سبحان الله! والله ما كشفت كنف أنثى قط**، ويعلم أن حسان بن ثابت يروج لهذا الإفك عنه، فلا يملك نفسه أن يضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تودي به، ودافعه إلى رفع سيفه على امرئ مسلم، وهو منهي عنه، إن الألم قد تجاوز طاقته، فلم يملك زمام نفسه الجريح!

ثم ها هو ذا رسول الله ﷺ وهو رسول الله، وهو في الذروة من بني هاشم.. ها هو ذا يُرمى في بيته، وفي من؟ في عائشة التي حلت من قلبه في مكان الابنة والزوجة والحبيبة، وها هو ذا يُرمى في طهارة فراشه، وهو الطاهر الذي تفيض منه الطهارة، وها هو ذا يُرمى في صيانة حرمته، وهو القائم على الحرمات في أمته، وها هو ذا يرمى في حياطة ربه له، وهو الرسول المعصوم من كل سوء.

ها هو ذا ﷺ يُرمى في كل شيء حين يرمى في عائشة رضي الله عنها يرمى في فراشه وعرضه، وقلبه ورسالته، يُرمى في كل ما يعتز به عربي، وكل ما يعتز به نبي، ها هو ذا يُرمى في هذا كله، ويتحدث الناس به في المدينة شهرًا كاملًا، فلا يملك أن يضع لهذا كله حدًّا، والله يريد لحكمة يراها أن يدع هذا الأمر شهرًا كاملًا لا يبين فيه بيانًا، ومحمد الإنسان يعاني ما يعانيه الإنسان في هذا الموقف الأليم، يعاني من العار، ويعاني فجيعة القلب، ويعاني فوق ذلك الوحشة المؤرقة، الوحشة من نور الله الذي اعتاد أن ينير له الطريق، والشك يعمل في قلبه ـ مع وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله، ولكنه لا يطمئن نهائيًّا إلى هذه القرائن ـ والفرية تفوح في المدينة، وقلبه الإنساني المحب لزوجه الصغيرة يتعذب بالشك، فلا يملك أن يطرد الشك؛ لأنه في النهاية بشر، ينفعل في هذا انفعالات البشر، وزوج لا يطيق أن يمس فراشه، ورجل تتضخم بذرة الشك في قلبه متى استقرت، ويصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم.

وها هو ذا يثقل عليه العبء وحده، فيبعث إلى أسامة بن زيد رضي الله عنه ـ حبه القريب إلى قلبه ـ ويبعث إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ ابن عمه وسنده ـ يستشيرهما في خاصة أمره، فأما علي فهو من عصب محمد ﷺ، وهو شديد الحساسية بالموقف لهذا السبب، ثم هو شديد الحساسية بالألم والقلق اللذين يعتصران قلب محمد ﷺ، ابن عمه وكافله، فهو يشير بأن الله لم يضيِّق عليه، ويشير مع هذا بالتثبت من الجارية ليطمئن قلب رسول الله ﷺ ويستقر على قرار، وأما أسامة فيدرك ما بقلب رسول الله ﷺ من الود لأهله، والتعب لخاطر الفراق، فيشير بما يعلمه من طهارة أم المؤمنين، وكذب المفترين الأفاكين.

ورسول الله ﷺ في لهفة الإنسان، وفي قلق الإنسان، يستمد من حديث أسامة، ومن شهادة الجارية مددًا وقوة يواجه بهما القوم في المسجد، فيستعذر ممن نالوا عرضه، ورموا أهله، ورموا رجلًا من فضلاء المسلمين لا يعلم أحد عليه من سوء.. فيقع بين الأوس والخزرج ما يقع من تناور ـ وهم في مسجد

رسول الله ﷺ وفي حضرة رسول الله ﷺ ـ ويدل هذا على الجو الذي كان يظلل الجماعة المسلمة في هذه الفترة الغريبة، وقد خدشت قداسة القيادة، ويحز هذا في نفس الرسول ﷺ والنور الذي اعتاد أن يسعفه لا ينير له الطريق! فإذا هو يذهب إلى عائشة نفسها يصارحها بما يقول الناس، ويطلب منها هي البيان الشافي المريح!

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة، وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع، ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم.

ولقد قالت عائشة رضي الله عنها عن هذا القرآن الذي تنزل: «**وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحيًا يتلى. ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها**».

ولكن الأمر ـ كما يبدو من ذلك الاستعراض ـ لم يكن أمر عائشة رضي الله عنها ولا قاصرًا على شخصها، فلقد تجاوزها إلى شخص الرسول ﷺ ووظيفته في الجماعة يومها، بل تجاوزه إلى صلته بربه ورسالته كلها، وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها؛ من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل في القضية المبتدعة، ويرد المكيدة المدبرة، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام، ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله، وما يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

فهم ليسوا فردًا ولا أفرادًا، إنما هم (عصبة) متجمعة ذات هدف واحد، ولم يكن عبد الله بن أُبي بن سلول وحده هو الذي أطلق ذلك الإفك، إنما هو الذي تولى معظمه، وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين، الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة، فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية، وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة، ثم خدع فيها المسلمون فخاض منهم من خاض في حديث الإفك كحمنة بنت جحش، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة.

أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة، وعلى رأسها ابن سلول، الحَذِر الماكر، الذي لم يَظهر بشخصه في المعركة، ولم يقل علانية ما يؤخذ به، فيُقاد إلى الحد، إنما كان يهمس به بين ملئه الذين يطمئن إليهم، ولا يشهدون عليه، وكان التدبير من المهارة والخبث بحيث أمكن أن ترجف به المدينة شهرًا كاملًا، وأن تتداوله الألسنة في أطهر بيئة وأتقاها!

وقد بدأ السياق ببيان تلك الحقيقة ليكشف عن ضخامة الحادث، وعمق جذوره، وما وراءه من عصبة تكيد للإسلام والمسلمين هذا الكيد الدقيق العميق اللئيم.

ثم سارع بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

خير، فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته، وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله، ويبين مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، فهي عندئذ لا تقف عند حد، إنما تمضي صعدًا إلى أشرف المقامات، وتتطاول إلى أعلى الهامات، وتعدم الجماعة كل وقاية وكل تحرج وكل حياء.

وهو خير أن يكشف الله للجماعة المسلمة ـ بهذه المناسبة ـ عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم.

أما الآلام التي عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته، والجماعة المسلمة كلها، فهي ثمن التجربة، وضريبة الابتلاء، الواجبة الأداء!

أما الذين خاضوا في الإفك، فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ ولكل منهم نصيبه من سوء العاقبة عند الله، وبئس ما اكتسبوه، فهو إثم يعاقبون عليه في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم.

والذي تولى كبره، وقاد حملته، واضطلع منه بالنصيب الأوفى، كان هو عبد الله بن أُبي بن سلول، رأس النفاق، وحامل لواء الكيد، ولقد عرف كيف يختار مقتلًا، لولا أن الله كان من ورائه محيطًا، وكان لدينه حافظًا، ولرسوله عاصمًا، وللجماعة المسلمة راعيًا.

ولقد روي أنه لما مر صفوان بن المعطل بهودج أم المؤمنين وابن سلول في ملأ من قومه قال: من هذه؟ فقالوا: عائشة رضي الله عنها، فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها!

وهي قولة خبيثة راح يذيعها ـ عن طريق عصبة النفاق ـ بوسائل ملتوية، بلغ من خبثها أن تموج المدينة بالفرية التي لا تُصدَّق، والتي تكذبها القرائن كلها، وأن تلوكها ألسنة المسلمين غير متحرجين، وأن تصبح موضوع أحاديثهم شهرًا كاملًا، وهي الفرية الجديرة بأن تُنفى وتُستبعد للوهلة الأولى.

وإن الإنسان ليدهش ـ حتى اليوم ـ كيف أمكن أن تروج فرية ساقطة كهذه في جو الجماعة المسلمة حينذاك، وأن تُحدث هذه الآثار الضخمة في جسم الجماعة، وتسبب هذه الآلام القاسية لأطهر النفوس وأكبرها على الإطلاق.

لقد كانت معركة خاضها رسول الله ﷺ وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك، وخاضها الإسلام، معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ وخرج منها منتصرًا كاظمًا لآلامه الكبار، محتفظًا بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره، فلم تُؤْثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله، والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته، والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه.

ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه، ولو عاد إلى منطق الفطرة لهداه، والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج في مواجهة الأمور، بوصفه أول خطوة في الحكم عليها: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

نعم كان هذا هو الأولى، أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في مثل هذه الحمأة، وامرأة نبيهم الطاهرة وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم، فظنُّ الخير بهما أولى، فإن ما لا يليق بهم لا يليق بزوج رسول الله ﷺ ولا يليق بصاحبه الذي لم يعلم عنه إلا خيرًا، كذلك فعل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما كما روى الإمام محمد بن إسحاق: **أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة** رضي الله عنها **؟، قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك.**

ونقل الإمام محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره «الكشاف»: **أن أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءًا؟ قال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة رضي الله عنها ما خنت رسول الله ﷺ فعائشة خير مني، وصفوان خير منك.**

وكلتا الروايتين تدلان على أن بعض المسلمين رجع إلى نفسه واستفتى قلبه، فاستبعد أن يقع ما نُسب إلى عائشة، وما نُسب إلى رجل من المسلمين: من معصية لله وخيانة لرسوله، وارتكاس في حمأة الفاحشة، لمجرد شبهة لا تقف للمناقشة!

هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور، خطوة الدليل الباطني الوجداني، فأما الخطوة الثانية فهي طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ وهذه الفِرية الضخمة التي تتناول أعلى المقامات، وأطهر الأعراض، ما كان ينبغي أن تمر هكذا سهلة هينة، وأن تشيع هكذا دون تثبت ولا بينة، وأن تتقاذفها الألسنة وتلوكها الأفواه دون شاهد ولا دليل: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ وهم لم يفعلوا فهم كاذبون إذن، كاذبون عند الله الذي لا يُبدل القول لديه، والذي لا يتغير حكمه، ولا يتبدل قراره، فهي الوصمة الثابتة الصادقة الدائمة التي لا براءة لهم منها، ولا نجاة لهم من عقباها.

هاتان الخطوتان: خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير، وخطوة التثبت بالبينة والدليل، غفل عنهما المؤمنون في حادث الإفك، وتركوا الخائضين يخوضون في عرض رسول الله ﷺ، وهو أمر عظيم لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم، فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبدًا بعد هذا الدرس الأليم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

لقد احتسبها الله للجماعة المسلمة الناشئة درسًا قاسيًا، فأدركهم بفضله ورحمته ولم يمسسهم بعقابه وعذابه، فهي فعلة تستحق العذاب العظيم، العذاب الذي يتناسب مع العذاب الذي سببوه للرسول ﷺ وزوجه وصديقه وصاحبه الذي لا يعلم عليه إلا خيرًا، والعذاب الذي يتناسب مع الشر الذي ذاع في الجماعة المسلمة وشاع، ومس كل المقدسات التي تقوم عليها حياة الجماعة، والعذاب الذي يناسب خبث الكيد الذي كادته عصبة المنافقين للعقيدة لتقتلعها من جذورها حين تزلزل ثقة المؤمنين بربهم ونبيهم وأنفسهم طوال شهر كامل، حافل بالقلق والقلقلة والحيرة بلا يقين! ولكن فضل الله تدارك الجماعة الناشئة، ورحمته شملت المخطئين، بعد الدرس الأليم.

والقرآن يرسم صورة لتلك الفترة التي أفلتَ فيها الزمام، واختلَّت فيها المقاييس، واضطربت فيها القيم، وضاعت فيها الأصول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

وهي صورة فيها الخفة والاستهتار وقلة التحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ لسان يتلقى عن لسان، بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبره القلوب! ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾! بأفواهكم لا بوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبكم. إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه، قبل أن تستقر في المدارك، وقبل أن تتلقاها العقول ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ أن تقذفوا عرض رسول الله ﷺ، وأن تدعوا الألم يعصر قلبه وقلب زوجه وأهله، وأن تلوِّثوا بيت الصديق الذي لم يُرم في الجاهلية، وأن تتهموا صحابيًّا مجاهدًا في سبيل الله، وأن تمسوا عصمة رسول الله ﷺ وصلته بربه، ورعاية الله له.. ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذي تزلزل له الرواسي، وتضج منه الأرض والسماء.

ولقد كان ينبغي أن تجفل القلوب من مجرد سماعه، وأن تتحرج من مجرد النطق به، وأن تُنكر أن يكون هذا موضوعًا للحديث، وأن تتوجه إلى الله تنزهه عن أن يدع نبيه لمثل هذا، وأن تقذف بهذا الإفك بعيدًا عن ذلك الجو الطاهر الكريم: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

وعندما تصل هذه اللمسة إلى أعماق القلوب فتهزها هزًّا، وهي تطلعها على ضخامة ما جنت وبشاعة ما عملت، عندئذ يجيء التحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَعِظُكُمُ﴾ في أسلوب التربية المؤثر، في أنسب الظروف للسمع والطاعة والاعتبار، مع تضمين اللفظ معنى التحذير من العودة إلى مثل ما كان: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ ومع تعليق إيمانهم على الانتفاع بتلك العظة: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ فالمؤمنون لا يمكن أن يُكشف لهم عن بشاعة عمل كهذا الكشف، وأن يحذروا منه مثل هذا التحذير، ثم يعودوا إليه وهم مؤمنون: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ على مثال ما بين في حديث الإفك، وكشف عما وراءه من كيد، وما وقع فيه من خطايا وأخطاء: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ يعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف، ويعلم مداخل القلوب، ومسارب النفوس، وهو حكيم في علاجها، وتدبير أمرها، ووضع النظم والحدود التي تصلح بها».

[الظلال لقطب ٤/ ٢٤٩٨-٢٥٠٣].

٤٢ ـ معالجة بعض آثار حادث الإفك:

يقول صاحب الظلال: «ثم يمضي في التعقيب على حديث الإفك، وما تخلف عنه من آثار، مكررًا التحذير من مثله، مذكرًا بفضل الله ورحمته، متوعدًا من يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بعذاب الله في الآخرة، ذلك مع تنقية النفوس من آثار المعركة، وإطلاقها من ملابسات الأرض، وإعادة الصفاء إليها والإشراق.. كما تتمثل في موقف أبي بكر ﷺ من قريبه مسطح بن أثاثة الذي خاض في حديث الإفك مع من خاض: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

والذين يرمون المحصنات ـ وبخاصة أولئك الذين تجرأوا على رمي بيت النبوة الكريم ـ إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة، وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها.. بذلك تشيع الفاحشة في النفوس، لتشيع بعد ذلك في الواقع.

من أجل هذا وصف الذين يرمون المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وذلك جانب من منهج التربية، وإجراء من إجراءات الوقاية، يقوم على خبرة بالنفس البشرية، ومعرفة بطريقة تكيف مشاعرها واتجاهاتها، ومن ثم يعقب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

ومن ذا الذي يعلم أمر هذه النفس إلا الذي خلقها؟ ومن ذا الذي يدبر أمر هذه الإنسانية إلا الذي برأها؟ ومن ذا الذي يرى الظاهر والباطن، ولا يخفى على علمه شيء إلا العليم الخبير؟

ومرة أخرى يذكِّر المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

إن الحدث لعظيم، وإن الخطأ لجسيم، وإن الشر الكامن فيه لخليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء، ولكن فضل الله ورحمته، ورأفته ورعايته.. ذلك ما وقاهم السوء، ومن ثم يذكِّرهم به المرة بعد المرة، وهو يربيهم بهذه التجربة الضخمة التي شملت حياة المسلمين.

فإذا تمثلوا أن ذلك الشر العظيم كان وشيكًا أن يصيبهم جميعًا، لولا فضل الله ورحمته، صور لهم عملهم بأنه اتباع لخطوات الشيطان، وما كان لهم أن يتبعوا خطوات عدوهم وعدو أبيهم من قديم، وحذَّرهم ما يقودهم الشيطان إليه من مثل هذا الشر المستطير: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقًا غير طريقه المشؤوم! صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن، ويرتجف لها وجدانه، ويقشعر لها خياله! ورسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية: ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾.

وحديث الإفك نموذج من هذا المنكر الذي قاد إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه، وهو نموذج منفر شنيع.

وإن الإنسان لضعيف، معرض للنزعات، عرضة للتلوث، إلا أن يدركه فضل الله ورحمته، حين يتجه إلى الله، ويسير على نهجه.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ ﴾.

فنورُ الله الذي يشرق في القلب يطهره ويزكيه، ولولا فضل الله ورحمته لم يزك من أحد ولم يتطهر، والله يسمع ويعلم، فيزكي من يستحق التزكية، ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

وعلى ذكر التزكية والطهارة تجيء الدعوة إلى الصفح والمغفرة بين بعض المؤمنين وبعض ـ كما يرجون غفران الله لما يرتكبونه من أخطاء وذنوب ـ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

نزلت في أبي بكر ﷺ بعد نزول القرآن ببراءة الصديقة، وقد عرف أن مسطح بن أثاثة كان ممن خاضوا فيه، وهو قريبه، وهو من فقراء المهاجرين، وكان أبو بكر ﷺ ينفق عليه، فآلى على نفسه لا ينفع مسطحًا بنافعة أبدًا.

نزلت هذه الآية تذكِّر أبا بكر ﷺ، وتذكِّر المؤمنين، بأنهم هم يخطؤون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم، فليأخذوا أنفسهم ـ بعضهم مع بعض ـ بهذا الذي يحبونه، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقيه، إن كانوا قد أخطأوا وأساؤوا.

وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية، التي تطهرت بنور الله، أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق ﷺ، أبي بكر الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه، فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو، وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحي: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ حتى يرتفع على الآلام، ويرتفع على مشاعر الإنسان، ويرتفع على منطق البيئة، وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق يقول: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، ويحلف: والله لا أنزعها منه أبدًا، ذلك في مقابل ما حلف: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا.

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير، ويغسله من أوضار المعركة، ليبقى أبدًا نظيفًا طاهرًا زكيًّا مشرقًا بالنور». [الظلال لقطب ٤/ ٢٥٠٣-٢٥٠٥].

٤٣ ـ وعيد من يقذفون المؤمنات الغافلات:

يقول صاحب الظلال: «ذلك الغفران الذي يُذكِّر الله المؤمنين به، إنما هو لمن تاب عن خطيئة رمي المحصنات وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، فأما الذين يرمون المحصنات عن خبث وعن إصرار، كأمثال ابن أُبي فلا سماحة ولا عفو، ولو أفلتوا من الحد في الدنيا؛ لأن الشهود لم يشهدوا فإن عذاب الله ينتظرهم في الآخرة، ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

ويجسم التعبير جريمة هؤلاء ويبشعها، وهو يصورها رميًا للمحصنات المؤمنات وهن غافلات غارات، غير آخذات حذرهن من الرمية، وهن بريئات الطوايا مطمئنات لا يحذرن شيئًا؛ لأنهن لم يأتين شيئًا يحذرنه! فهي جريمة تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسة، ومن ثم يعاجل مقترفيها باللعنة، لعنة الله لهم، وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة، ثم يرسم ذلك المشهد الأخّاذ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ

﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ فإذا بعضهم يتهم بعضًا بالحق، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك! وهي مقابلة في المشهد مؤثرة، على طريقة التناسق الفني في التصوير القرآني.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ ويجزيهم جزاءهم العدل، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق، ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾». [الظلال لقطب ٤/ ٢٥٠٥].

٤٤ ـ ألا يقابل الخطأ بخطأ:

يقول د/ الغضبان: «والمنهج الذي يجب أن يسود في هذا الصدد هو أن لا يقابل الافتراء بافتراء آخر ولا تقابل الإشاعة المؤتفكة بإشاعة أخرى، وأن يتمالك الأخ المفترَى عليه فلا يطلق لسانه في أعراض الآخرين ولو اعتدي عليه حتى تتم براءته وتبرئته، هو موقف أصيل ندعو إليه هذا الأخ في هذا المجال، ونلحظ موطن القدوة من العناصر الثلاثة الذين نيل من عرضهم في حديث الإفك.

أولهم: محمد رسول الله ﷺ، وهو سيد الأمة والبشرية، وهو الحاكم والقائد، وبيده السلطة، وبإشارة واحدة منه يمكنه أن ينهي حياة الوالغين في عرضة، ومع ذلك لم يملك في هذا الأمر بعد أن استشار كبار أصحابه إلا أن يخطب في المسلمين قائلًا على المنبر بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «**أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمتُ منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي**».

وعندما وقعت الأزمة بين الفريقين الأوس والخزرج لم يكن ليملك ﷺ إلا أن يكون حكمًا بينهما رغم أن أحد الفريقين يدافع عن الوالغين في عرض عائشة رضي الله عنها والآخر يهاجمهم، ومع ذلك فقد أرضى الفريقين ولم يتحيز لأحدهما لأنه لا يملك البينة ليرد بها على الفريق المتهم، وحتى عندما تجاوز صفوان رضي الله عنه في ثورته لنفسه وضرب حسان بن ثابت رضي الله عنه على اتهامه لم يسنده رسول الله ﷺ من الخلف ويشجعه على تجاوزه قبل صدور البينة مع أنه يبرئ أحب الناس إليه عائشة رضي الله عنها، وقد حضر حسان وصفوان عند رسول الله ﷺ ولنستمع إلى تلك المحاكمة الهادئة للجنديين المتجاوزين!

قَالَ ابْنُ المعَطَّلِ: يَا رَسُولَ الله، آذَانِي وَهَجَانِي، فَاحْتَمَلَنِي الْغَضَبُ فَضَرَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِحَسَّانَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ، أَتَشَوَّهْتَ عَلَى قَوْمِي أَنْ هَدَاهُمْ اللهُ لِلْإِسْلَامِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ فِي الَّذِي أَصَابَكَ**»، قَالَ: هِيَ لَك يَا رَسُولَ الله.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إبْرَاهِيمَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْطَاهُ عِوَضًا مِنْهَا بَيْرُحَاءَ، وَهِيَ قَصْرُ بَنِي حُدَيْلَةَ الْيَوْمَ بِالمدِينَةِ وَكَانَتْ مَالًا لِأَبِي طَلْحَةَ بْنِ سَهْلٍ تَصَدَّقَ بِهَا عَلَى آلِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَعْطَاهَا رَسُولُ الله ﷺ حَسَّانَ فِي ضَرْبَتِهِ وَأَعْطَاهُ سِيرِينَ، أَمَةً قِبْطِيَّةً، فَوَلَدَتْ له عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَسَّانَ.

وهكذا كلفت ضربة صفوان لحسان أرضًا وجارية وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت ﷺ بعد عفوه عن صفوان بن المعطل ﷺ، وكان هذا العطاء لمن ينشد الشعر في اتهام زوجته ويمضي في الإشاعة دون توقف.

وثانيهم: هو أبو بكر ﷺ وزوجه أم رومان وقد نزل بهم من البلاء ما لم ينزل بمسلم وأقصى ما قالته أم عائشة التي تعرض عرضها للثلم والإهانة: **أي بنية خفضي عليك الشأن، فو الله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.**

ولم يتمالك أبو بكر ﷺ أن يقول: **(ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر، والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية حيث لا نعبد الله، فيقال لنا في الإسلام!).**

وثالثهم: عائشة ﷺ التي لم تنته عن البكاء حتى ظنت أن البكاء سيصدع كبدها.

وحين ووجهت بالأمر من رسول الله ﷺ يسألها عن الحديث فقالت: **(إني والله قد علمت أنكم سمعتم بهذا الحديث، فوقع في أنفسكم فصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر يعلم الله أني منه بريئة لتصدقنني، وإني والله ما أجد لي مثلًا إلا أبا يوسف إذ يقول: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون).**

إنها مواقف لا يحمل التاريخ لها مثيلًا من أطهر أهل الأرض يوصمون بشرفهم وعرضهم ومع ذلك فلم يخرج أحد منهم عن طوره، ولا أطلق لسانه في عِرض أحد، وضبط كل واحد منهم أعصابه، وأما الذي خرج عن طوره فهو صفوان بن المعطل ﷺ، وضرب حسان ﷺ بالسيف وكاد الأمر أن يستفحل لولا أن عالجه رسول الله ﷺ.

إنه أدب الإسلام العظيم مع الذين يرددون الإشاعة ويسيرون في الإفك قبل أن تعرف أنها إفك أو إشاعة». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/ ٥-١١].

٤٥ ـ أهم الآداب والأحكام التي تؤخذ من آيات الإفك:

يقول د/ آل عابد: «أخذ العلماء من الآيات التي نزلت في حديث الإفك أحكامًا وآدابًا من أهمها ما يأتي:

(١) تبرئة السيدة عائشة ﷺ من الإفك بقرآن يتلى إلى آخر الزمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١].

(٢) أن حكمة الله ﷻ اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشر، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكر الصديق ﷺ بحديث الإفك خيرًا لهم، حيث كتب لهم الأجر العظيم على صبرهم وقوة إيمانهم، قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

(٣) الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حسن الظن فيما بينهم، قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

(٤) تكذيب القائلين بالإفك، قال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

(٥) بيان فضل الله على المؤمنين ورأفته بهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

(٦) وجوب التثبت من الأقوال قبل نشرها، والتأكد من صحتها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

(٧) النهي عن اقتراف مثل هذا الذنب العظيم أو العودة إليه، قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

(٨) النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

(٩) بيان فضل الله سبحانه على عباده المؤمنين ورأفته بهم وكرر ذلك تأكيدًا له، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

(١٠) النهي عن تتبع خطوات الشيطان التي تؤدي للهلاك، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

(١١) الحث على النفقة على الأقارب وإن أساؤوا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

(١٢) غيرة الله تعالى على عباده المؤمنين الصادقين، ودفاعه عنهم، وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللعن في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

(١٣) بيان سنة من سُنن الله الجارية في الكون وهي أن الطيبين يجعلهم الله من نصيب الطيبات، والطيبات يجعلهن من نصيب الطيبين، قال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

(١٤) والناس عندما رُميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا على أربعة أقسام:

قال فضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد ـ عند تعليقه على حديث يتعلق بقصة الإفك ـ: إن الناس عندما رُميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا أربعة أقسام:

قسم: وهو أكثر الناس، حموا أسماعهم وألسنتهم فسكتوا، ولم ينطقوا إلا بخير، ولم يصدقوا ولم يكذبوا.

وقسم: سارع إلى التكذيب، وهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب ﷺ، فقد وصفوه عند سماعه بأنه إفك وبرؤوا عائشة مما نُسب إليها في الحال.

أما القسم الثالث: فكانوا جملة من المسلمين لم يصدقوا ولم يكذبوا ولم ينفوه، ولكنهم يتحدثون بما يقول أهل الإفك، وهم يحسبون أن الكلام بذلك أمر هين لا يُعرضهم لعقوبة الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافر، وحاكي الإفك ليس بقاذف، ومن هؤلاء حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة.

أما القسم الرابع: فهم الذين جاؤوا بالإفك وعلى رأس هؤلاء عدو الله عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين لعنه الله وهو الذي تولى كبره.

وقد أشار الله ﷻ إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام، وأنه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف، فقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

أما القسم الثالث: فقد أشار الله ﷻ إلى أنه ما كان ينبغي لهم أن يتحدثوا بمثل هذا الحديث حيث يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

وقد أثبت الله ﷻ لأهل هذا القسم فضائلهم التي عملوها حيث أثبت لمسطح هجرته وإيمانه عندما حلف أبو بكر أنه لن ينفق على مسطح، ولن يتصدق عليه وهو من ذوي قرابته، فقال ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

أما القسم الرابع: وهو جماعة عبد الله بن أبي الذين جاؤوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب، فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر، وأنه لن يقبل منهم توبة، وأنه أنزل عليهم لعنته في الدنيا والآخرة، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

[ينظر: فقه الإسلام، شرح بلوغ المرام، لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد ٩/ ٥].

[حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ١/ ٣٨٤-٣٨٨].

المطلب الثالث

الدروس الفقهية

١ ـ مرتكب الكبيرة ليس بكافر:

يقول د/ الشرقاوي: «مذهب أهل السنة والجماعة أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر إلا إذا كان مستحلًّا لها، فإذا كان مستحلًّا لها فهو كافر، ولا يحبط العمل الصالح بارتكاب الكبيرة إلا إذا كان مستحلًّا لها فإذا كان لها مستحلًّا فهو كافر مرتد قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزُّمَر].

ومن الأدلة التي استدل بها أهل السنة على أن العمل الصالح لا يحبط بارتكاب الكبيرة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ [النور: ٢٢].

فهذه الآية الكريمة نزلت في أعقاب حديث الإفك، وذلك أن أبا بكر الصديق ﷺ كان قد حلف أن لا ينفق على مسطح ﷺ بعد أن خاض مع الخائضين في الإفك، وكان مسطح ﷺ قريبًا لأبي بكر ﷺ وكان من المهاجرين البدريين (الذين شهدوا غزوة بدر)، وكان من المساكين ولو كان قذفه للسيدة عائشة محبطًا لعمله لما وصفه الله تعالى بكونه من المهاجرين في سبيل الله بعد أن وقع في القذف، فدل هذا على أن ثواب هجرته لم يحبط بوقوعه في تلك الكبيرة.

يقول الإمام الرازي: احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان المحابطة، وقالوا إنه سبحانه وصف مسطح بكونه من المهاجرين بعد أن ارتكب كبيرة القذف، فدل هذا على أن ثواب كونه مهاجرًا لم يحبط بإقدامه على القذف» [مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/ ١٩١]. [المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ٢/ ٧٨٦-٧٨٧].

٢ ـ عظمة عقوبة إشاعة الفاحشة:

يقول د/ الزيد: «في حديث الإفك عظمة عقوبة الذين يحبون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، ولا شك أن الذين يشيعونها فعلًا أشد عقوبة، وأشد منهم عقوبة الذين يشيعونها زورًا وبهتانًا واختلاقًا». [فقه السيرة للزيد ٤٨٦].

٣ ـ الأمانة في الشهادة:

يقول د/ أبو فارس: «حين سأل النبي ﷺ بريرة ﵂ عن عائشة ﵂، وشدد عليها علي ﷺ في السؤال أجابت بما تعلم، ولم تخف شيئًا من ذلك، لقد قالت: (ما رأيت عليها أمرًا من هذا) وكل الذي أخذته عليها أنها تنام عن عجينها لصغر سنها فتأتي الشياة والطيور فتأكله.

وتتجلى الأمانة في الشهادة أيضًا في موقف زينب بنت جحش زوج الرسول ﷺ، إذ تجاوزت الغيرة بين الضرائر، ووقفت عند أحكام دينها بورعها فقالت تجيب على سؤال الرسول ﷺ إياها عن عائشة: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي**[(١)]، **وَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا**». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٩].

٤ ـ جواز إعطاء الصدقة والزكاة للعصاة:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من هذا أيضًا ـ أي من إعطاء مسطح الصدقة مع ولوغه في عرض عائشة ـ جواز إعطاء الصدقة والزكاة للعصاة، فإنها قد تمنعهم من كثير من الجرائم، وقد تُدني قلوب العصاة، فإن الجفوة تولد الجرائم، والعطاء يرطب النفوس فلا تجفو، وتحس بأن عيشها مؤتلفة مع الجماعة أدنى إلى الراحة». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٩٨٩ ط قطر]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧٣].

٥ ـ توخي العدل بين الزوجات:

يقول د/ الزيد: «من فوائد هذه الغزوة مشروعية العدل بين الزوجات، ومن العدل إجراء القرعة بين الزوجات عند إرادة السفر ببعضهن كما فعل الرسول ﷺ في هذه الغزوة، حيث أصابت القرعة عائشة فخرج بها [(٢)]، مع أن القسم بين نسائه غير واجب عليه على الأرجح.

[ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢١٤]. [فقه السيرة للزيد ٤٧٦].

ويقول د/ أبو فارس: «إن حرص رسول الله ﷺ على أن يُجري القرعة بين نسائه دليل على تحريه العدل في معاملته مع أزواجه، فهو لا يفضل واحدة منهن على غيرها.

ومن المعلوم أن مصاحبة رسول الله ﷺ فضل وشرف، فينبغي أن لا يقصر هذا الشرف على زوج دون أخرى، وإن أسلم طريق لتوخي العدل الدقيق هو القرعة؛ لأن القرعة تكون نتيجتها بعيدة عن الميل القلبي وغير متأثرة بالهوى والرغبة؛ لأن نتيجتها كما هو معلوم ليست بيد أحد من البشر، وهي وسيلة ترضى بها النفوس، وتطمئن لها القلوب». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٥٩].

---

(١) أحمي سمعي وبصري: أي أمنعهما من أن أنسب إليهما ما لم يدركاه، ومن العذاب لو كذبت عليهما. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/ ٤٤٨.

(٢) وتستخدم القرعة إذا تزاحم عدد على من يقدم ولا يمكن اجتماعهم فيه ولا مميز لأحدهما عن الآخر أقرع بينهم، فالقرعة تستخدم لتمييز المراتب المتساوية وكذلك تستخدم القرعة إذا علمنا أن الشيء لأحدهما وجهلناه مثل إذ طلق إحدى زوجاته أو أعتق أحد عبيده وجهل من وقع عليه الطلاق أو العتق أجريت القرعة فالقرعة حينئذ تستخدم لأمرين: ١ـ تمييز المراتب المتساوية ٢ـ إزالة جهالة سبقها علم والله أعلم، وينظر: السعدي، القواعد في الأصول الجامعة ص ٦٧، القاعدة الخامسة والعشرين.

٦ ـ مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن:

يقول د/ أبو فارس: «لقد تقدم أن النبي ﷺ أقرع بين أزواجه في غزوة بني المصطلق وكان سهم عائشة رضي الله عنها الذي خرج، فأخذها معه، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقرع بين أزواجه في سائر غزواته».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٥٩].

ويقول د/ قريبي: «إن من عدالة الإسلام وسماحته ومراعاته للحقوق الإنسانية، أن المرء إذا كان لديه أكثر من زوجة فإنه يأمره ويطالبه العدل بينهن في المأكل والمشرب والملبس والمبيت لأن لكل واحدة منهن حقًّا، ومن ثم فإنه إذا أراد السفر ببعضهن أرشده الإسلام إلى القرعة بينهن ليكون ذلك أدعى إلى رضى الجميع وعدم وقوع بغضاء وشحناء بينهن؛ لأنه لو اختار واحدة منهن بدون قرعة لكان في ذلك شقاق ونزاع مع بقية الزوجات، لاستوائهن في هذا الحق، فكانت القرعة حاسمة لهذا كله.

ولما كانت غزوة بني المصطق أقرع رسول الله ﷺ بين نسائه كعادته فأصابت القرعة عائشة فخرج بها ﷺ معه، ودلت الأحاديث الصحيحة أن عائشة رضي الله عنها خرجت وحدها في هذه الغزوة ولم تخرج معه ﷺ امرأة سواها، وأما ما ورد من خروج أم سلمة في هذه الغزوة أيضًا فإنه لا يصح.

وعند ابْنِ إِسْحَاقَ: «حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبّادِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَائِشَةَ عَنْ نَفْسِهَا، حِينَ قَالَ فِيهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا، فَكُلٌّ قَدْ دَخَلَ فِي حَدِيثِهَا عَنْ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا يُحَدِّثُ بَعْضُهُمْ مَا لَمْ يُحَدِّثْ صَاحِبَهُ، وَكُلٌّ كَانَ عَنْهَا ثِقَةً فَكُلُّهُمْ حَدَّثَ عَنْهَا مَا سَمِعَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةُ بَنِي المصْطَلَقِ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ، فَخَرَجَ سَهْمِي عَلَيْهِنَّ مَعَهُ، فَخَرَجَ بِي رَسُولُ الله ﷺ». **[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٧، وينظر: مسند أبي يعلى ٤/ ٤٥٠، ٥/ ٥٥٥].**

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَصَابَ عَائِشَةَ القُرْعَةَ فِي غَزْوَةَ بني الـمُصْطَلِقِ. **[مجمع الزوائد ٤/ ٥٩٢ كتاب النكاح (٧٦٩٨)، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى والطبراني باختصار، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات، و٩/ ٣٦٩-٣٧٠ كتاب المناقب باب حديث الإفك رقم ١٥٢٩٦، وقال الهيثمي: رواه البزار، وفيه: محمد بن عمرو، وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات].**

ونسبه السيوطي للبزار وابن مردويه، وقال: بسند حسن. **[الدرر المنثور ٥/ ٢٧].**

وبوب البخاري بقوله: (بَابُ حَمْلِ اَلرَّجُلِ اِمْرَأَتَهُ فِي اَلْغَزْوِ دُونَ بَعْضِ نِسَائِهِ)، ثم ذكر طرفًا من حديث عائشة في قصة الإفك، وهو: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ يَخْرُجُ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ». **[البخاري في الجهاد والسير (٢٨٧٩)].**

قال ابن حجر: «قَوْلُهُ: (بَابُ حَمْلِ اَلرَّجُلِ اِمْرَأَتَهُ فِي اَلْغَزْوِ دُونَ بَعْضِ نِسَائِهِ) ذَكَرَ فِيهِ طَرَفًا مِنْ حَدِيثِ عَائِشَة فِي قِصَّة اَلْإِفْك وَهُوَ ظَاهِرٌ فِيمَا تَرْجَمَ لَهُ، وَسَيَأْتِي شَرْحُ حَدِيثِ اَلْإِفْك تَامًّا فِي اَلتَّفْسِيرِ، وَفِيهِ اَلتَّصْرِيحُ بِأَنَّ حَمْلَ عَائِشَةَ مَعَهُ كَانَ بَعْدَ اَلْقُرْعَةِ بَيْنَ نِسَائِهِ».

[فتح الباري ٦/ ٧٨، وقع في فتح الباري الطبعة السلفية «قبل أن ينزل الحجاب» وهو خطأ مطبعي لأن أحاديث الإفك صريحة في وقوع هذه الحادثة بعد نزول الحجاب. وهو كذلك في الفتح، النسخة الحلبية ٦/ ٤١٨].

قلت: ومعلوم أن قصة الإفك كانت في غزوة بني المصطلق، وبهذا التقرير يتضح أن عائشة كانت وحدها في غزوة بني المصطلق؛ لذا فقد قال ابن حجر: «قَوْله: (فَخَرَجَ سَهْمِي) هَذَا يُشْعِر بِأَنَّهَا كَانَتْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَة وَحْدَهَا، لَكِنْ عِنْدَ الْوَاقِدِيِّ مِنْ طَرِيق عَبَّاد بْن عَبْد الله عَنْهَا أَنَّهَا خَرَجَتْ مَعَهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَة أَيْضًا أُمُّ سَلَمَة [ينظر الحديث في: المغازي للواقدي ٢/ ٤٢٦]، وَكَذَا فِي حَدِيث اِبْن عُمَر، وَهُوَ ضَعِيفٌ [ينظر الحديث في مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٢٣٧، ونسبه للطبراني وقال: فيه إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي وهو كذاب]، وَلَمْ يَقَع لِأُمِّ سَلَمَة فِي تِلْكَ الْغَزْوَة ذِكْر، وَرِوَايَة اِبْن إِسْحَاق [ينظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٧] مِنْ رِوَايَة عَبَّاد ظَاهِرَة فِي تَفَرُّد عَائِشَة بِذَلِكَ وَلَفْظه «فَخَرَجَ سَهْمِي عَلَيْهِنَّ، فَخَرَجَ بِي مَعَهُ». [فتح الباري ٨/ ٤٥٨].

وأما حكم العمل بالقرعة، فالجمهور من العلماء على القول بذلك.

والمشهور عن الحنفية والمالكية عدم اعتبارها. [ينظر: شرح صحيح النووي على مسلم ٥/ ٦٢٩، ٦٤١، وزاد المعاد لابن القيم ١/ ٥٥، وفتح الباري ٥/ ٢٩٣- ٢٩٤، وسبل السلام للصنعاني ٣/ ١٦٥، ونيل الأوطار للشوكاني ٦/ ٢٤٥، وعون المعبود شرح سنن أبي داود ٦/ ١٧٦].

والأحاديث ترد عليهم فإنها صريحة في ذلك». [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٣٨-٤٤١].

٧ ـ ثبوت إقامة الحد على القاذفين:

يقول د/ قريبي: «تقدم الحديث الوارد في ذلك عند أصحاب السنن وأحمد وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو أن رسول الله ﷺ لما نزل القرآن ببراءة عائشة، أمر بحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش، فضربوا حدهم.

والخلاف في عبد الله بن أُبي ابن سلول، فالأكثر على أنه لم يقم عليه حد، وقد تقدم تحقيق ذلك في مبحث إقامة الحد على القاذفين». [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٤٦].

٨ ـ مشروعية حد القذف:

يقول الشيخ أبو زهرة: «أحسب أن حد القذف قد شرع لهذه المناسبة التي شاعت فيها قالة السوء، وحديث الإفك؛ لأن الآيات جاءت متصلًا بعضها ببعض إذ أنه ذكر فيها نصاب الشهادة بالزنى، وهو أربعة شهداء وأنه إذا لم يكن الشهداء الأربعة، فإن الرامي بالزنا يكون كاذبًا، وهذا الحد هو جزاء الكذب،

وقد ذكر الله تعالى ذلك الحد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾[النور].

ونلاحظ أن الآية دلت على عقوبة أصلية مادية، وهي ضربهم ثمانين جلدة، وذكرت عقوبتين تابعتين معنويتين.

أحدهما: ألا تقبل لهم شهادة أبدًا؛ لأنهم كذبوا في مقام يجب الاحتراس فيه؛ ولأن الله تعالى وصفهم بأنهم الكاذبون، وحصرهم في وصف الكذب، فقال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور]، وكيف تُقبل شهادة من حصر في الكذب بحكم الله تعالى؛ ولذلك منع قبول شهادتهم أبديًّا، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً﴾[النور: ٤].

الثانية: من العقوبات التبعية وصفهم بالفسق، وهذا الوصف يستمر إذا لم يتوبوا، فالاستثناء بالتوبة إنما هو من وصف الفسق، فلا يكون التائب توبة نصوحًا فاسقًا، بل لا يكون مذنبًا؛ لأن التوبة تجب الذنوب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه].

ولقد طبَّق رسول الله ﷺ حد القذف على مسطح وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش التي منعها دينها من أن تخوض في حديث الإفك مع أنها الضرة التي كانت تناصي عائشة رضي الله عنها المنزلة عند رسول الله ﷺ وكان قد نزل حد القذف من قبل.

والقذف الرمي بالزنا، سواء أكان رميًا للرجل أو المرأة». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٣٨].

ويقول د/ أبو فارس: «ثبتت مشروعية حد القذف بإقامته ﷺ على من ثبتت إدانته بتهمة القذف، فجَلد القذفة ثمانين جلدة، وفوق ذلك لا تُقبل شهادته أبدًا، وهو فاسق، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾[النور]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧١-٧٢].

٩ ـ حد اللعان:

يقول الشيخ أبو زهرة: «واللعان نزل عقب بيان حد القذف وقبل حديث الإفك، وحد القذف سببه رمي الرجل أو المرأة بالزنا إذا لم يكن بينهما عقد زواج، أي يكون المقذوف ليس زوجًا للقاذف.

أما اللعان فإنه يكون عندما يرمي الزوج زوجته، واللعان أن يحلف الزوج الرامي أربع مرات أنه صادق فيما يرمي به زوجته من الزنا أو نفي الولد منه، والخامسة أن لعنة الله تعالى عليه إن كان من الكاذبين، فالحلف تضمن سلبًا وإيجابًا، والإيجاب كان بالحلف على وقوعه، والسلب كان بالحلف باستحقاق لعنة الله إن كان كاذبًا.

وقد ثبت بقوله تعالى بعد آية حد القذف: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦﴾ [النور].

وكان اللعان إذا كانت الزوجية قائمة وقت الرمي بالزنا بأن تكون قائمة حقيقة، أو حكمًا بأن تكون في عدة الطلاق الرجعي.

واختص رمي الزوج لزوجته بألا تكون شهادة أربعة؛ لأنه لا سبيل لأن يحضر أربعة يشهدون واقعة زنى زوجته؛ ولأن الغيظ الذي يكون عليه الزوج لابد أن يطفأ ولو بالقول في حضرة الحاكم.

ولقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله، إن الرجل يجد الرجل مع أهله، وإن قتله قتلتموه، وإن تكلم ضربتموه، وإن سكت، سكت على غيظ، اللهم بيِّن، فنزلت آية اللعان مبينة كاشفة.

وإنه إذا تم اللعان فرق بين الزوجين، فرقة أبدية عند جمهور الفقهاء، وأجاز أبو حنيفة العودة إليها بعقد جديد ومهر جديد إذا كذَّب نفسه.

وقد قال بعض الناس في أيامنا هذه: هل يطبق حد اللعان إذا رمت المرأة زوجها بالزنا، ولم يكن عندها شهداء أربعة؟

ونقول في الجواب عن ذلك: إن اللعان ورد بالنص في حال ما إذا رمى الزوج زوجته، وكان تفصيله في الحلف أربعة وهي إيجابية، وواحد سلبي، أما المرأة، فكان أربعة سلبية وواحد إيجابي.

ولا يمكن ثبوت الحدود إلا بالنص، إذ أنها تدرأ بالشبهات، فإن النبي ﷺ يقول: «**ادْرَؤُوا الْحُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَإِنَّ الإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ**». [الترمذي في الحدود (١٤٨٩)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

ولا يمكن أن نثبته بالقياس؛ لأن علة القياس غير ثابتة بقدر واحد في المقيس والمقيس عليه، إذ أن المرأة وعاء النسل للرجل، فمن حقه أن ينفي نسب الولد إذا كان من غيره؛ ولأن زنى المرأة أشد خطرًا على الأنساب من زنى الرجل، فليسا مشتركين في علة التخفيف من القذف إلى اللعان؛ ولأن المرأة في بيت الرجل، فالحكم منه بالزنا عليها قد يكون من غير حضور شهداء يشهدون.

أما الرجل فالزنا منه في أكثر الأحوال يكون خارج المنزل، فعلمها به، إما أن يكون من غير بينة، بل بالحدس والتخمين أو بإخبار الناس من غير تعيين المخبرين، وذلك هو الغالب، وإما أن يكون بمخبرين معينين، وفي هذه الحال تثبت الرمي بالزنا، ويكون حينئذ حد القذف، وما يترتب عليه من عقوبات مادية وتبعية، والله ﷻ هو العليم بذات الصدور». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٤٠-٨٤١].

١٠ ـ حد الزنا:

يقول الشيخ أبو زهرة: «الآيات تُتلى وإليك آية حد الزنا، وآية حد القذف، وآيات الإفك، وهذا التوالي الكافي ينبئ عن أن يكون النزول في وقت واحد أو متقارب، ومناسبة واحدة.

ونشير في هذا المقام إلى أن الزنا وردت فيه آيات يبين بعضها بعضًا.

أولها: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعٗا مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾ [النساء].

فهاتان الآيتان تفيد أن ثمة عقوبة تخص المرأة، وأخرى تعم الرجل والمرأة، فأما التي تخص المرأة، فإمساكها في البيوت حتى تموت أو يجعل الله تعالى لها سبيلًا بالزواج، كما هو الظاهر الواضح.

وأما التي تعم الرجل والمرأة، فهو الإيذاء، وقد جاءت السنة بعقوبةٍ للرجل تقابل عقوبة المرأة التي تخصها، وهو التغريب سنة، وهذا يقابل الإمساك في البيوت.

والإيذاء لهما تبينته آية النور، ولم تكن ناسخة، كما جاء على أقلام كثيرين من الكتاب؛ لأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا تعذر التوفيق بين النصين، والجمع هنا ممكن، وهو واجب؛ لأن كل آية تتمم الأخرى أو تبينها، كما في الآيات الواردة في عقوبة الزنا.

والإيذاء المبين في سورة النور هو قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [النور].

وجاءت بعد ذلك آيات القذف، ثم آيات اللعان ثم حديث الإفك والبهتان الذي يصور جريمة الرمي بالزنا، وأنها تشيع الفاحشة في الدين، وتفسد الجماعة، وتجعلها تعيش في مجتمع معتم بالرذيلة، والاستهانة بها.

ويجب التنبيه هنا إلى أمرين:

أحدهما: أننا لا نقول جازمين أن هذه الآيات المتعلقة بهذه الحدود، قد نزلت كلها عقب غزوة بني المصطلق أو في أثنائها، أو عند حديث الإفك، والذي يغلب علينا أن حد القذف والزنا قد نزل قبلها بقليل أو بكثير كما أشرنا؛ ولذلك طبق حد القذف على الذين ارتكبوا ذلك الإثم، ولا يقال أنه قد طبقت عليهم عقوبة، لم تكن ثابتة وقت ارتكابهم ما حقت عليهم بسببها، وأن العقوبات تطبق على الحوادث اللاحقة ولا تطبق على الحوادث السابقة، كما يقرر علماء القانون الوضعي، وإن كان في ذلك القول نظر يوجب تمحيصه.

التنبيه الثاني: أن العقوبات في الإسلام تسير سيرًا ضروريًّا مع منازل المرتكبين، فتكبر العقوبة مع كبر المجرم، وتصغر مع صغره؛ لأن الجريمة مهانة، والمهانة تهون على الصغير؛ لأن نفسه مهينة في نظره، والمهانة من ذي المنزلة أمر كبير.

ولذلك جعل الإسلام العقوبة المقدرة على العبد نصفها إذا وقعت الجريمة من الحر، وقد قال تعالى في شأن الإماء: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].

فإذا كانت الحرة إذا زنت تجلد مائة، فإنه إذا زنت الأمة تجلد خمسين.

وكذلك الأمر بالنسبة للعبد، وكذلك الأمر لكل الحدود، لا فرق بين حد وحد، وكل ذلك في العقوبات القابلة للتنصيف.

ولقد أجمع الفقهاء على أنه يجب تخفيف ما على العبد بعد تنصيفه، فيكون السوط الذي يجلد به العبد أخف من سوط الحر». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٤١-٨٤٢].

١١ ـ حكم من قذف عائشة ﵂ بما برَّأها الله منه:

يقول د/ قريبي: «قال ابن تيمية في الصارم المسلول تحت عنوان: حكم من سب عائشة ﵂: قال القاضي أبو يعلى: من قذف عائشة بما برأها الله منه كفر بلا خلاف. وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد. وصرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم.

ثم ذكر بعض الوقائع التي قُتل فيها من رماها ﵂ بعد نزول القرآن ببراءتها.

[الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ ص ٥٦٥-٥٦٧، ٥٧١].

وقال ابن القيم: اتفقت الأمة على كفر قاذفها. [زاد المعاد ١/ ٤١].

وقال ابن كثير ـ تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور].

أجمع العلماء قاطبة على أن من سب عائشة ﵂ بعد هذا ورماها بما رماها بعد هذا الذي ذُكر في هذه الآية، فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن. [تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٦].

وقال بدر الدين الزركشي: من قذفها فقد كفر لتصريح القرآن الكريم ببراءتها.

[الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٥٢ طبع المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٣٩٠ هـ].

وقال السيوطي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] الآيات: قال: نزلت في براءة عائشة فيما قذفت به، فاستدل به الفقهاء على أن قاذفها يقتل لتكذيبه لنص القرآن، قال العلماء:

قذف عائشة كُفر لأن الله سبح نفسه عند ذكره (الضمير يعود على قصة الإفك)، فقال: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾، كما سبح نفسه عند ذكر ما وصفه به المشركون من الزوجة والولد.

[الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٦٠، وينظر: المحلى لابن حزم ١٣/ ٥٠٤، والشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض ٢/ ٣٠٩، والروض الأنف للسهيلي ٦/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠، وكتاب محمد الخرشي على مختصر خليل ٥/ ٣١٦، والإقناع لشرف الدين الحجاوي الحنبلي ٤/ ٢٩٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع لمنصور بن يونس البهوتي الحنبلي ٦/ ١٧١، وأحكام المرتدين في الشريعة الإسلامية للدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي ص ١١١].

وقال النووي أثناء تعداد فوائد حديث الإفك: «الحادية والأربعون: براءة عائشة من الإفك، وهي براءة قطعية بنص القرآن العزيز، ولو تشكك فيها إنسان ـ والعياذ بالله ـ لصار كافرًا مرتدًّا بإجماع المسلمين.

قال ابن عباس وغيره: لم تزن امرأة نبي من الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وهذا إكرام من الله تعالى لهم». [شرح صحيح مسلم للنووي ٥/ ٦٤٣]. [مرويات غزوة بني المصطلق ٤٥٦-٤٥٨].

١٢ ـ كفر من قذف أمهات المؤمنين رضي الله عنهن:

يقول د/ الشرقاوي: «حاصل القول أن من قذف عائشة رضي الله عنها بعد نزول براءتها فهو كافر مرتد باتفاق أهل العلم، وفي بقية أمهات المؤمنين رضي الله عنهن قولان أصحهما أنهن كعائشة رضي الله عنهن.

قال الآلوسي: «وحكم رمي سائر أمهاتهم حكم رميها ـ أي عائشة ـ وكذا حكم رمي سائر أزواج الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وكذا أمهاتهم، وعندي أن حكم رمي بنات النبي ﷺ كذلك لا سيما بضعته الطاهرة الكريمة فاطمة الزهراء صلى الله تعالى على أبيها وعليها وسلم». [روح المعاني للآلوسي ١٨/ ١٢٨].

وقال القاضي عياض: «ومن سب غير عائشة من أزواج النبي ﷺ ففيه قولان: أحدهما: يقتل لأنه سب النبي ﷺ بسب وقذف حليلته، والآخر أنهن كسائر الصحابة يجلد القاذف حد المفتري ـ القذف ـ والمختار هو القول الأول]. [شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا للقاضي عياض ٥/ ٥٣٤ مطبعة المدني د.ت].

وذكر ابن تيمية في كتابه الصارم المسلول أن قذف أم المؤمنين عائشة كفر بلا خلاف، وفي قذف غيرها من أمهات المؤمنين قولان أصحهما أنه كقذف أم المؤمنين عائشة يكفر فاعله» [يراجع: الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ ص٥٦٥- ٥٦٧ ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٨ هـ سنة ١٩٧٨م].

[المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ٢/ ٧٨٥-٧٨٦].

قال الإمام السهيلي: «فَإِنْ قَذَفَ قَاذِفٌ الْيَوْمَ إحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ سِوَى عَائِشَةَ، فَيَتَوَجَّهُ فِيهِ لِلْفُقَهَاءِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ كَمَا يَقْتَضِيهِ عُمُومُ التَّنْزِيلِ، وَكَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ بِالَّذِينَ قَذَفُوا أَهْلَهُ قَبْلَ نُزُولِ الْقُرْآنِ بِبَرَاءَتِهَا، وَأَمَّا بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ بِبَرَاءَتِهَا فَيُقْتَلُ قَاذِفُهَا قَتْلَ كُفْرٍ وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ وَلَا يُورَثُ؛ لِأَنَّهُ كَذَّبَ اللهَ تَعَالَى.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: فِي قَاذِفِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ ـ أَنْ يُقْتَلَ أَيْضًا، وَبِهِ كَانَ يَأْخُذُ شَيْخُنَا ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ وَيَحْتَجُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب] الْآيَةُ، وَإِذَا قَذَفَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ سَبَّهُ، فَمِنْ أَعْظَمِ الْإِذَايَةِ أَنْ يُقَالَ عَنْ الرَّجُلِ قَرْنَانٌ (القرنان: هو الذي يشارَك في امرأته، كأنه يقرن به غيره، أو هو نعت سوء في الرجل الذي لا غيرة له، قال الأزهري: هذا من كلام الحاضرة، ولم أر البوادي لفظوا به ولا عرفوه)، وَإِذَا سُبَّ نَبِيٌّ بِمِثْلِ هَذَا فَهُوَ كُفْرٌ صُرَاحٌ، وَقَدْ قَالَ الـمُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] أَيْ خَانَتَا فِي الطَّاعَةِ لَهُمَا، وَالْإِيمَانِ، وَمَا بَغَتْ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ، أَيْ مَا زَنَتْ».

[الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٤٤٩-٤٥٠، وينظر للتفصيل: حديث الإفك للمقدسي ص ٨٦-٩٧].

١٣ ـ جواز الغيبة عند أداء الشهادة:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من قول بريرة رضي الله عنها وشهادتها في عائشة رضي الله عنها جواز الغيبة عند أداء الشهادة، في مجلس القاضي أو أمام الحاكم». **[غزوة الأحزاب لأبي فارس٦٩]**.

١٤ ـ الحنث في اليمين لفعل الخير:

يقول د/ أبو فارس: «وتعتبر يمين أبي بكر رضي الله عنه منعقدة، ولا يجب الوفاء بها، بل يستحب الحنث فيها ومن ثم إخراج الكفَّارة، أخذًا بحديث رسول الله ﷺ: **«مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِهَا وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»**. **[مسلم في الأيمان (١٦٥٠، ١٦٥١)، وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك في الموطأ، والدارمي وأحمد في المسند]**.

ولقد التزم أبو بكر رضي الله عنه بهذا فأعاد النفقة على مسطح وكفر عن يمينه». **[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧٣]**.

١٥ ـ استئذان الزوج في خروج الزوجة:

يقول د/ أبو فارس: «المرأة لا تخرج من بيت زوجها إلا بإذنه، حتى ولو كانت تريد الخروج إلى بيت أبيها وأمها وزيارتها.

ويستفاد هذا من استئذان عائشة للنبي ﷺ إلى بيت أبيها، ولو كان الأمر مباحًا لما استأذنت فيه». **[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٧٣]**.

١٦ ـ فوائد مجملة ذكرها ابن حجر في الفتح:

قال الحافظ ابن حجر: «وَفِي هَذَا الْحَدِيث مِنْ الْفَوَائِد غَيْرُ مَا تَقَدَّمَ:

جَوَازُ الْحَدِيث عَنْ جَمَاعَة مُلَفَّقًا مُجْمَلًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْبَحْث فِيهِ.

وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّة الْقُرْعَة حَتَّى بَيْنَ النِّسَاء وَفِي الْمُسَافَرَة بِهِنَّ.

وَالسَّفَر بِالنِّسَاءِ حَتَّى فِي الْغَزْو.

وَجَوَاز حِكَايَة مَا وَقَعَ لِلْمَرْءِ مِنْ الْفَضْل وَلَوْ كَانَ فِيهِ مَدْح نَاسٍ وَذَمُّ نَاسٍ إِذَا تَضَمَّنَ ذَلِكَ إِزَالَة تَوَهُّم النَّقْصِ عَنْ الْحَاكِي إِذَا كَانَ بَرِيئًا عِنْدَ قَصْد نُصْح مَنْ يَبْلُغُهُ ذَلِكَ لِئَلَّا يَقَعَ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ سَبْقٍ، وَأَنَّ الِاعْتِنَاءَ بِالسَّلَامَةِ مِنْ وُقُوعِ الْغَيْرِ فِي الْإِثْمِ أَوْلَى مِنْ تَرْكِهِ يَقَعُ فِي الْإِثْمِ وَتَحْصِيلِ الْأَجْرِ لِلْمَوْقُوعِ فِيهِ.

وَفِيهِ اِسْتِعْمَالُ التَّوْطِئَةِ فِيمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ.

وَأَنَّ الْهَوْدَجَ يَقُومُ مَقَامَ الْبَيْتِ فِي حَجْبِ الْمَرْأَةِ.

وَجَوَازُ رُكُوبِ الْمَرْأَةِ الْهَوْدَجَ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَشُقُّ عَلَيْهِ حَيْثُ يَكُونُ مُطِيقًا لِذَلِكَ.

وَفِيهِ خِدْمَةُ الْأَجَانِبِ لِلْمَرْأَةِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ.

وَجَوَازُ تَسَتُّرِ الْمَرْأَةِ بِالشَّيْءِ الْمُنْفَصِلِ عَنْ الْبَدَنِ.

وَتَوَجُّه الْمَرْأَةِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهَا وَحْدَهَا وَبِغَيْرِ إِذْنٍ خَاصٍّ مِنْ زَوْجِهَا بَلْ اِعْتِمَادًا عَلَى الْإِذْنِ الْعَامِّ الْمُسْتَنِدِ إِلَى الْعُرْفِ الْعَامِّ.

وَجَوَازُ تَحَلِّي الْمَرْأَةِ فِي السَّفَرِ بِالْقِلَادَةِ وَنَحْوِهَا.

وَصِيَانَةُ الْمَالِ وَلَوْ قَلَّ لِلنَّهْيِ عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ، فَإِنَّ عِقْدَ عَائِشَةَ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَهَبٍ وَلَا جَوْهَرٍ.

وَفِيهِ شُؤْمُ الْحِرْص عَلَى الْمَالِ؛ لِأَنَّهَا لَوْ لَمْ تُطِلْ فِي التَّفْتِيش لَرَجَعَتْ بِسُرْعَةٍ، فَلَمَّا زَادَ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ أَثَّرَ مَا جَرَى، وَقَرِيبٌ مِنْهُ قِصَّةُ الْمُتَخَاصِمَيْنِ حَيْثُ رُفِعَ عِلْمُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ بِسَبَبِهِمَا؛ فَإِنَّهُمَا لَمْ يَقْتَصِرَا عَلَى مَا لَا بُدَّ مِنْهُ بَلْ زَادَا فِي الْخِصَامِ حَتَّى اِرْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فَأَثَّرَ ذَلِكَ بِالرَّفْعِ الْمَذْكُورِ.

وَتَوَقُّفُ رَحِيلِ الْعَسْكَرِ عَلَى إِذْنِ الْأَمِيرِ.

وَاسْتِعْمَالُ بَعْضِ الْجَيْشِ سَاقَةً يَكُونُ أَمِينًا؛ لِيَحْمِلَ الضَّعِيفَ، وَيَحْفَظَ مَا يَسْقُطُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ.

وَالِاسْتِرْجَاعُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ.

وَتَغْطِيَةُ الْمَرْأَةِ وَجْهَهَا عَنْ نَظَرِ الْأَجْنَبِيِّ.

وَإِطْلَاقُ الظَّنِّ عَلَى الْعِلْمِ، كَذَا قِيلَ، وَفِيهِ نَظَرٌ قَدَّمْتُهُ.

وَإِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ، وَعَوْنُ الْمُنْقَطِعِ، وَإِنْقَاذُ الضَّائِعِ، وَإِكْرَامُ ذَوِي الْقَدْرِ وَإِيثَارُهُمْ بِالرُّكُوبِ، وَتَجَشُّمُ الْمَشَقَّةِ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

وَحُسْنُ الْأَدَبِ مَعَ الْأَجَانِبِ خُصُوصًا النِّسَاءَ لَا سِيَّمَا فِي الْخَلْوَةِ.

وَالْمَشْيُ أَمَامَ الْمَرْأَةِ لِيَسْتَقِرَّ خَاطِرَهَا وَتَأْمَنَ مِمَّا يُتَوَهَّم مِنْ نَظَرِهِ لَهَا عَسَاهُ يَنْكَشِفُ مِنْهَا فِي حَرَكَةِ الْمَشْيِ.

وَفِيهِ مُلَاطَفَةُ الزَّوْجَة وَحُسْنُ مُعَاشَرَتِهَا وَالتَّقْصِيرُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ إِشَاعَة مَا يَقْتَضِي النَّقْص وَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ، وَفَائِدَةُ ذَلِكَ أَنْ تَتَفَطَّنَ لِتَغْيِيرِ الْحَالِ فَتَعْتَذِرُ أَوْ تَعْتَرِفُ.

وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الـمَرِيضِ أَنْ يُعْلِمُوهُ بِمَا يُؤْذِي بَاطِنَهُ لِئَلَّا يَزِيد ذَلِكَ فِي مَرَضِهِ.

وَفِيهِ السُّؤَالُ عَنْ الـمَرِيضِ.

وَإِشَارَةٌ إِلَى مَرَاتِبِ الْهِجْرَانِ بِالْكَلَامِ وَالْمُلَاطَفَةِ، فَإِذَا كَانَ السَّبَبُ مُحَقَّقًا فَيُتْرَكُ أَصْلًا، وَإِنْ كَانَ مَظْنُونًا فَيُخَفَّفُ، وَإِنْ كَانَ مَشْكُوكًا فِيهِ أَوْ مُحْتَمَلًا فَيَحْسُنُ التَّقْلِيلُ مِنْهُ لَا لِلْعَمَلِ بِمَا قِيلَ بَلْ لِئَلَّا يُظَنَّ بِصَاحِبِهِ عَدَمَ الْمُبَالَاةِ بِمَا قِيلَ فِي حَقِّهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ خَوَارِمِ الـمُرُوءَةِ.

وَفِيهِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا خَرَجَتْ لِحَاجَةٍ تَسْتَصْحِبُ مَنْ يُؤْنِسُهَا أَوْ يَخْدِمُهَا مِمَّنْ يُؤْمَن عَلَيْهَا.

وَفِيهِ ذَبُّ الـمُسْلِمِ عَنْ الـمُسْلِمِ خُصُوصًا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ، وَرَدْعُ مَنْ يُؤْذِيهِمْ وَلَوْ كَانَ مِنْهُمْ بِسَبِيلٍ.

وَبَيَانُ مَزِيدِ فَضِيلَةِ أَهْلِ بَدْرٍ.

وَإِطْلَاقُ السَّبِّ عَلَى لَفْظِ الدُّعَاءِ بِالسُّوءِ عَلَى الشَّخْصِ.

وَفِيهِ الْبَحْثُ عَنْ الْأَمْرِ الْقَبِيحِ إِذَا أُشِيعَ وَتُعْرَفُ صِحَّتَهُ وَفَسَادُهُ بِالتَّنْقِيبِ عَلَى مَنْ قِيلَ فِيهِ هَلْ وَقَعَ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا يُشْبِهُهُ أَوْ يَقْرَبُ مِنْهُ، وَاسْتِصْحَابُ حَالِ مَنْ اُتُّهِمَ بِسُوءٍ إِذَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مَعْرُوفًا بِالْخَيْرِ إِذَا لَمْ يَظْهَرْ عَنْهُ بِالْبَحْثِ مَا يُخَالِف ذَلِكَ.

وَفِيهِ فَضِيلَةٌ قَوِيَّةٌ لِأُمِّ مِسْطَحٍ لِأَنَّهَا لَمْ تُحَابِ وَلَدَهَا فِي وُقُوعِهِ فِي حَقِّ عَائِشَةَ بَلْ تَعَمَّدَتْ سَبَّهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَفِيهِ تَقْوِيَةٌ لِأَحَدِ الِاحْتِمَالَيْنِ فِي قَوْله ﷺ عَنْ أَهْل بَدْر: «**إِنَّ اللهَ قَالَ لَهُمْ: اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، وَأَنَّ الرَّاجِحَ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ الذُّنُوبَ تَقَعُ مِنْهُمْ لَكِنَّهَا مَقْرُونَة بِالْمَغْفِرَةِ تَفْضِيلًا لَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ، وَمَرْجُوحِيَّةُ الْقَوْلِ الْآخَرِ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى عَصَمَهُمْ فَلَا يَقَعُ مِنْهُمْ ذَنْبٌ، نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّد بْنُ أَبِي جَمْرَةَ نَفَعَ اللهُ بِهِ.

وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ التَّسْبِيحِ عِنْدَ سَمَاعِ مَا يَعْتَقِدُ السَّامِعُ أَنَّهُ كَذِبٌ، وَتَوْجِيهُهُ هُنَا أَنَّهُ ﷺ يُنَزِّهُ أَنْ يَحْصُلَ لِقَرَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَدْنِيسٌ، فَيُشْرَعُ شُكْرُهُ بِالتَّنْزِيهِ فِي مِثْلِ هَذَا، نَبَّهَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْر بْنُ الْعَرَبِيُّ.

وَفِيهِ تَوَقُّفُ خُرُوجِ الْمَرْأَةِ مِنْ بَيْتِهَا عَلَى إِذْنِ زَوْجِهَا وَلَوْ كَانَتْ إِلَى بَيْتِ أَبَوَيْهَا.

وَفِيهِ الْبَحْثُ عَنِ الْأَمْرِ الْمَقُولِ مِمَّنْ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَقُولُ فِيهِ.

وَالتَّوَقُّفُ فِي خَبَرِ الْوَاحِدِ وَلَوْ كَانَ صَادِقًا، وَطَلَبُ الِارْتِقَاءِ مِنْ مَرْتَبَةِ الظَّنِّ إِلَى مَرْتَبَةِ الْيَقِينِ، وَأَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ إِذَا جَاءَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ أَفَادَ الْقَطْعَ لِقَوْلِ عَائِشَة رضي الله عنها: «لَأَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا»، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى عَدَدٍ مُعَيَّنٍ.

وَفِيهِ اِسْتِشَارَةُ الْمَرْءِ أَهْلَ بِطَانَتِهِ مِمَّنْ يَلُوذُ بِهِ بِقَرَابَةٍ وَغَيْرِهَا، وَتَخْصِيصُ مَنْ جُرِّبَتْ صِحَّةُ رَأْيِهِ مِنْهُمْ بِذَلِكَ وَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ أَقْرَبَ.

وَالْبَحْثُ عَنْ حَالِ مَنْ اُتُّهِمَ بِشَيْءٍ، وَحِكَايَةُ ذَلِكَ لِلْكَشْفِ عَنْ أَمْرِهِ وَلَا يُعَدُّ ذَلِكَ غِيبَةً.

وَفِيهِ اِسْتِعْمَالُ: «لَا نَعْلَم إِلَّا خَيْرًا» فِي التَّزْكِيَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَافٍ فِي حَقِّ مَنْ سَبَقَتْ عَدَالَتُهُ مِمَّنْ يُطَّلَعُ عَلَى خَفِيِّ أَمْرِهِ.

وَفِيهِ التَّثَبُّتُ فِي الشَّهَادَةِ.

وَفِطْنَةُ الْإِمَامِ عِنْدَ الْحَادِثِ الْمُهِمِّ.

وَالِاسْتِنْصَارُ بِالْأَخِصَّاءِ عَلَى الْأَجَانِبِ.

وَتَوْطِئَةُ الْعُذْرِ لِمَنْ يُرَادُ إِيقَاعُ الْعِقَابِ بِهِ أَوْ الْعِتَابُ لَهُ.

وَاسْتِشَارَةُ الْأَعْلَى لِمَنْ هُوَ دُونَهُ.

وَاسْتِخْدَامُ مَنْ لَيْسَ فِي الرِّقِّ.

وَأَنَّ مَنِ اِسْتُفْسِرَ عَنْ حَالِ شَخْصٍ فَأَرَادَ بَيَانَ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ فَلْيُقَدِّمْ ذِكْرَ عُذْرَهُ فِي ذَلِكَ إِنْ كَانَ يَعْلَمُهُ كَمَا قَالَتْ بَرِيرَةُ فِي عَائِشَةَ حَيْثُ عَابَتْهَا بِالنَّوْمِ عَنِ الْعَجِينِ، فَقَدَّمَتْ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ.

وَفِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ إِلَّا بَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَجْزِمْ فِي الْقِصَّةِ بِشَيْءٍ قَبْلَ نُزُولِ الْوَحْيِ، نَبَّهَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي جَمْرَةَ نَفَعَ اللهُ بِهِ.

وَأَنَّ الْحَمِيَّةَ لله وَرَسُولِهِ لَا تُذَمُّ.

وَفِيهِ فَضَائِلُ جَمَّةٌ لِعَائِشَةَ وَلِأَبَوَيْهَا وَلِصَفْوَانَ وَلِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ وَسَعْدِ بْنِ مُعَاذَ وَأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ.

وَفِيهِ أَنَّ التَّعَصُّبَ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ يُخْرِجُ عَنِ اِسْمِ الصَّلَاحِ، وَجَوَازُ سَبِّ مَنْ يَتَعَرَّضَ لِلْبَاطِلِ وَنِسْبَتُهُ إِلَى مَا يَسُوءُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ فِيهِ، لَكِنْ إِذَا وَقَعَ مِنْهُ مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ جَازَ إِطْلَاقُ ذَلِكَ عَلَيْهِ تَغْلِيظًا لَهُ، وَإِطْلَاقُ الْكَذِبِ عَلَى الْخَطَأِ، وَالْقَسَمُ بِلَفْظِ لَعَمْرُ الله.

وَفِيهِ النَّدْبُ إِلَى قَطْعِ الْخُصُومَةِ، وَتَسْكِينِ ثَائِرَةِ الْفِتْنَةِ، وَسَدِّ ذَرِيعَةَ ذَلِكَ، وَاحْتِمَالِ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ بِزَوَالِ أَغْلَظِهِمَا، وَفَضْلُ اِحْتِمَالِ الْأَذَى.

وَفِيهِ مُبَاعَدَةُ مَنْ خَالَفَ الرَّسُولَ ﷺ وَلَوْ كَانَ قَرِيبًا حَمِيمًا.

وَفِيهِ أَنَّ مَنْ آذَى النَّبِيَّ ﷺ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يُقْتَلُ؛ لِأَنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﷺ أَطْلَقَ ذَلِكَ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ النَّبِيُّ ﷺ.

وَفِيهِ مُسَاعَدَةُ مَنْ نَزَلَتْ فِيهِ بَلِيَّةٌ بِالتَّوَجُّعِ وَالْبُكَاءِ وَالْحُزْنِ.

وَفِيهِ تَثَبُّتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق ﷺ فِي الْأُمُورِ لِأَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ ـ مَعَ تَمَادِي الْحَالِ فِيهَا شَهْرًا ـ كَلِمَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا مَا وَرَدَ عَنْهُ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: «**وَاللهِ مَا قِيلَ لَنَا هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَيْفَ بَعْدَ أَنْ أَعَزَّنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ**» وَقَعَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ اِبْنِ عُمَرَ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ.

وَفِيهِ اِبْتِدَاءُ الْكَلَامِ فِي الْأَمْرِ الْمُهِمِّ بِالتَّشَهُّدِ وَالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ وَقَوْلِ أَمَّا بَعْدُ.

وَتَوْقِيفُ مَنْ نُقِلَ عَنْهُ ذَنْبٌ عَلَى مَا قِيلَ فِيهِ بَعْدَ الْبَحْثِ عَنْهُ.

وَأَنَّ قَوْلَ: كَذَا وَكَذَا يُكَنَّى بِهَا عَنْ الْأَحْوَالِ، كَمَا يُكَنَّى بِهَا عَنِ الْأَعْدَادِ، وَلَا تَخْتَصُّ بِالْأَعْدَادِ.

وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ التَّوْبَةِ، وَأَنَّهَا تُقْبَلُ مِنْ الـمُعْتَرِفِ الـمُقْلِعِ الـمُخْلِصِ، وَأَنَّ مُجَرَّدَ الِاعْتِرَافِ لَا يُجْزِئُ فِيهَا، وَأَنَّ الِاعْتِرَافَ بِمَا لَمْ يَقَعْ لَا يَجُوزُ وَلَوْ عُرِفَ أَنَّهُ يَصْدُقُ فِي ذَلِكَ، وَلَا يُؤَاخَذُ عَلَى مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى اِعْتِرَافِهِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ أَوْ يَسْكُتَ، وَأَنَّ الصَّبْرَ تُحْمَدُ عَاقِبَتُهُ وَيُغْبَطُ صَاحِبُهُ.

وَفِيهِ تَقْدِيمُ الْكَبِيرِ فِي الْكَلَامِ وَتَوَقُّفُ مَنْ اِشْتَبَهَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي الْكَلَامِ.

وَفِيهِ تَبْشِيرُ مَنْ تَجَدَّدَتْ لَهُ نِعْمَةٌ أَوْ اِنْدَفَعَتْ عَنْهُ نِقْمَةٌ.

وَفِيهِ الضَّحِكُ وَالْفَرَحُ وَالِاسْتِبْشَارُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَمَعْذِرَةُ مَنِ اِنْزَعَجَ عِنْدَ وُقُوعِ الشِّدَّةِ لِصِغَرِ سِنٍّ وَنَحْوِهِ.

وَإِدْلَالُ الْمَرْأَةِ عَلَى زَوْجِهَا وَأَبَوَيْهَا.

وَتَدْرِيجُ مَنْ وَقَعَ فِي مُصِيبَةٍ فَزَالَتْ عَنْهُ لِئَلَّا يَهْجُمَ عَلَى قَلْبِهِ الْفَرَحُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ فَيُهْلِكُهُ، يُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ اِبْتِدَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ بِبَرَاءَةِ عَائِشَةَ بِالضَّحِكِ، ثُمَّ تَبْشِيرُهَا، ثُمَّ إِعْلَامُهَا بِبَرَاءَتِهَا مُجْمَلَةً، ثُمَّ تِلَاوَتُهُ الْآيَاتِ عَلَى وَجْهِهَا.

وَقَدْ نَصَّ الْحُكَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ اِشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ لَا يُمَكَّنُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي الرَّيِّ فِي الْمَاءِ؛ لِئَلَّا يُفْضِيَ بِهِ ذَلِكَ إِلَى الْهَلَكَةِ، بَلْ يُجَرَّعُ قَلِيلًا قَلِيلًا.

وَفِيهِ أَنَّ الشِّدَّةَ إِذَا اِشْتَدَّتْ أَعْقَبَهَا الْفَرَجُ.

وَفُضِّلَ مَنْ يُفَوِّضُ الْأَمْرَ لِرَبِّهِ، وَأَنَّ مَنْ قَوِيَ عَلَى ذَلِكَ خَفَّ عَنْهُ الْهَمُّ وَالْغَمُّ، كَمَا وَقَعَ فِي حَالَتَيْ عَائِشَةَ قَبْلَ اِسْتِفْسَارِهَا عَنْ حَالِهَا وَبَعْدَ جَوَابِهَا بِقَوْلِهَا: وَاَللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ خُصُوصًا فِي صِلَةِ الرَّحِمِ.

وَوُقُوعُ الْمَغْفِرَةِ لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ أَوْ صَفَحَ عَنْهُ.

وَأَنَّ مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَفْعَلُ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ اُسْتُحِبَّ لَهُ الْحِنْثُ.

وَجَوَازُ الِاسْتِشْهَادِ بِآيِ الْقُرْآنِ فِي النَّوَازِلِ.

وَالتَّأَسِّي بِمَا وَقَعَ لِلْأَكَابِرِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ.

وَفِيهِ التَّسْبِيحُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ وَاسْتِعْظَامِ الْأَمْرِ.

وَذَمُّ الْغِيبَةِ وَذَمُّ سَمَاعِهَا وَزَجْرُ مَنْ يَتَعَاطَاهَا لَا سِيَّمَا إِنْ تَضَمَّنَتْ تُهْمَةُ الْمُؤْمِنِ بِمَا لَمْ يَقَعْ مِنْهُ.

وَذَمُّ إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ.

وَتَحْرِيمُ الشَّكِّ فِي بَرَاءَةِ عَائِشَةَ ﵂.

وَفِيهِ تَأْخِيرُ الْحَدِّ عَمَّنْ يُخْشَى مِنْ إِيقَاعِهِ بِهِ الْفِتْنَةَ، نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ اِبْنُ بَطَّالٍ مُسْتَنِدًا إِلَى أَنَّ عَبْد الله بْن أُبَيٍّ كَانَ مِمَّنْ قَذَفَ عَائِشَة، وَلَمْ يَقَعْ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ مِمَّنْ حُدَّ، وَتَعَقَّبَهُ عِيَاض بِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ قَذَفَ، بَلْ الَّذِي ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَخْرِجُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ.

قُلْتُ: وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ قَذَفَ صَرِيحًا، وَوَقَعَ ذَلِكَ فِي مُرْسَلِ سَعِيدِ بْن جُبَيْر عِنْدَ اِبْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرِهِ وَفِي مُرْسَلِ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي «الْإِكْلِيلِ» بِلَفْظِ: «فَرَمَاهَا عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ» وَفِي حَدِيثِ اِبْنِ عُمَرَ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ بِلَفْظٍ أَشْنَع مِنْ ذَلِكَ، وَوَرَدَ أَيْضًا أَنَّهُ مِمَّنْ جُلِدَ الْحَدَّ، وَقَعَ ذَلِكَ فِي رِوَايَةِ أَبِي أُوَيْسٍ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدٍ وَعَبْدِ الله بْن أَبِي بَكْر بْن حَزْمٍ وَغَيْرِهِمَا مُرْسَلًا، أَخْرَجَهُ الْحَاكِم فِي «الْإِكْلِيلِ»، فَإِنْ ثَبَتَا سَقَطَ السُّؤَالُ، وَإِنْ لَمْ يَثْبُتَا فَالْقَوْلُ مَا قَالَ عِيَاضٌ، فَإِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ خَبَرٌ بِأَنَّهُ قَذَفَ صَرِيحًا ثُمَّ لَمْ يُحَدَّ، وَقَدْ حَكَى الْمَاوَرْدِيُّ إِنْكَارَ وُقُوعِ الْحَدِّ بِالَّذِينَ قَذَفُوا عَائِشَة أَصْلًا كَمَا تَقَدَّمَ، وَاعْتَلَّ قَائِلُهُ بِأَنَّ حَدَّ الْقَذْفِ لَا يَجِبُ إِلَّا بِقِيَامِ بَيِّنَةٍ أَوْ إِقْرَارٍ، وَزَادَ غَيْرُهُ «أَوْ بِطَلَبِ الـمَقْذُوفِ» قَالَ: وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ. كَذَا قَالَ، وَفِيهِ نَظَر يَأْتِي إِيضَاحُهُ فِي كِتَابِ الْحُدُودِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَاسْتَدَلَّ بِهِ أَبُو عَلِيٍّ الْكَرَابِيسِيُّ صَاحِبُ الشَّافِعِيِّ فِي «كِتَابِ الْقَضَاءِ» عَلَى مَنْعِ الْحُكْمِ حَالَةَ الْغَضَبِ لِمَا بَدَا مِنْ سَعْدِ بْن مُعَاذٍ وَأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ حَالَةَ الْغَضَبِ، حَتَّى كَادُوا يَقْتَتِلُونَ، قَالَ: فَإِنَّ الْغَضَبَ يُخْرِجُ الْحَلِيمَ الْمُتَّقِي إِلَى مَا لَا يَلِيق بِهِ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْغَضَبُ قَوْمًا مِنْ خِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِحَضْرَةِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى مَا لَا يَشُكُّ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَة أَنَّهَا مِنْهُمْ زَلَّةٌ... إِلَى آخِر كَلَامِهِ فِي ذَلِكَ.

وَهَذِهِ مَسْأَلَة نَقَلَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ فِيهَا رِوَايَةً عَنْ أَحْمَدَ، وَلَمْ تَثْبُت. وَسَيَأْتِي الْقَوْلُ فِيهَا فِي كِتَابِ الطَّلَاقِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَيُؤْخَذُ مِنْ سِيَاقِ عَائِشَةَ ﵂ جَمِيعَ قِصَّتِهَا الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى بَرَاءَتِهَا ـ بَيَانُ مَا أُجْمِلَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِسِيَاقِ أَسْبَابِ ذَلِكَ، وَتَسْمِيَةُ مَنْ يُعْرَفُ مِنْ أَصْحَابِ الْقَصَصِ لَمَّا فِي ضِمْنِ ذَلِكَ مِنْ الْفَوَائِدِ الْأَحْكَامِيَّةِ وَالْآدَابِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَبِذَلِكَ يُعْرَفُ قُصُورُ مَنْ قَالَ: بَرَاءَةُ عَائِشَةَ ثَابِتَةٌ بِصَرِيحِ الْقُرْآنِ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ لِسِيَاقِ قِصَّتِهَا؟». [فتح الباري ٨/ ٣٣٧-٣٣٩ كتاب التفسير (٤٧٥٠)].

المطلب الرابع
الدروس الاجتماعية

١ ـ مكانة المرأة في الإسلام:

«في حديث الإفك بيان لمكانة المرأة وعظم شأنها في الإسلام، فقد نزلت هذه الآيات التي تتلى في كتاب الله إلى يوم القيامة في شأن تبرئة امرأة». [فقه السيرة للزيد ٤٨٥].

٢ ـ حماية الإسلام الأعراض:

يقول د/ الصلابي: «كان المجتمع الإسلامي يتربى من خلال الأحداث، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى ﷻ أن يشرع بعض الأحكام التي تساهم في المحافظة على أعراض المؤمنين، ولذلك نزلت سورة النور، التي تحدثت عن حكم الزاني والزانية وعن قبح فاحشة الزنا، وعما يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزوجين صاحبه، وعن العقوبة التي أوجبها الله على الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى غير ذلك من الأحكام.

إن الإسلام حرم الزنا، وأوجب العقوبة على فاعله، فقد حرم أيضًا كل الأسباب المسببة له، وكل الطرق الموصلة إليه، ومنها إشاعة الفاحشة والقذف بها لتنزيه المجتمع من أن تسري فيه ألفاظ الفاحشة والحديث عنها؛ لأن كثرة الحديث عن فاحشة الزنا وسهولة قولها في كل وقت يهون أمرها لدى سامعيها، ويجرئ ضعفاء النفوس على ارتكابها، لهذا حرمت الشريعة الإسلامية القذف بالزنا، وأوجبت على من قذف عفيفًا أو عفيفة، طاهرًا أو طاهرة، بريئًا أو بريئة من الزنا حد القذف وهو الجلد ثمانين جلدة وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبة صادقة نصوحًا».

[ينظر: آثار تطبيق الشريعة ـ د/ محمد الزاحم ص١١٧]. [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٥٢-٢٥٣].

ويقول د/ الشرقاوي: «الإسلام دين الطهر والعفاف والعدالة والإنصاف والمودة والرحمة، والعزة والكرامة.

ولقد جاء هذا الدين الحنيف بتشريعات حكيمة وآداب قويمة تهدف إلى حماية الأعراض وصيانة الحرمات.

فلقد حرم الإسلام الزنا وجرَّمه لما يترتب عليه من أضرار جسيمة وأخطار عظيمة وعواقب وخيمة أليمة على الفرد والمجتمع، في الدنيا والآخرة، منها هتك الأعراض وتدنيس الحرمات واختلاط الأنساب، وإشاعة روح العداوة، وبث بذور الفتنة في المجتمع، إلى غير ذلك من الرذائل والبلايا المترتبة على الزنا، من أجل ذلك حرمه الإسلام وجرمه(حكم الله تعالى على الزاني المحصن (المتزوج) بالرجم حتى الموت وعلى الزاني غير المحصن مائة جلدة)، وحرم كل ما يوصل إليه ويرغب فيه من دواعي وأسباب ومقدمات (من

ضمن هذه الأسباب والمقدامات النظرة المحرمة والدخول على النساء (الأجنبيات) والخلوة بهن والاختلاط والتبرج وغير ذلك من الدواعي والأسباب الموصلة إلى الزنا من قول أو فعل)، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[الإسراء].

وقال سبحانه: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[النور].

كما حرم الإسلام القذف لما يترتب عليه من تدنيس للشرف وهتك للعرض وافتراء على الأبرياء قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[النور].

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[النور].

وقال ﷺ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»، **قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ**». [البخاري في الوصايا (٢٧٦٨)، وفي الحدود (٦٨٥٧)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٧١). والمحصنات هن الطاهرات العفيفات، والغافلات، أي الغافلات عن الفواحش لا تخطر ببالهن، والغافلات عما قذفن به والحكم يشمل النساء والرجال، وإنما عبر عنه بصيغة جمع المؤنث السالم على سبيل التغليب؛ لأن أغلب من يقذف من النساء؛ ولأن هتك أعراض النساء وتدنيس شرفهن أعظم بلية وأشد خطرًا من هتك أعراض الرجال وتدنيس شرفهم].

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه (الحجاب) عن حكمة تحريم القذف: «إن قذف المحصنة من النساء لا يجر عليها وحدها سوء المقالة والشهرة بل يشيع الفاحشة في المجتمع ويفسد العلائق وينشر العداوة بين الأُسر، ويدخل الريبة في الأنساب، ويدفع به شخص واحد عشرات من النفوس إلى الشدائد والمحن عددًا من السنين بمجرد ما يتفوه به من كلمة بهتان».

[الحجاب لأبي الأعلى المودودي ص١٣٧ ط دار التراث العربي بدون تاريخ].

والعرض أغلى ما يمتلكه الإنسان فإذا فقده فقده بلا رجعة، وفي سبيل المحافظة عليه تُزهق الأرواح وتُراق الدماء ويجود الكرام بأنفسهم، فإذا مات المسلم وهو يذود عن حوضه ويدافع عن عرضه فهو شهيد، وفي ذلك يقول ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**».

[أبو داود في السنة (٤٧٧٢)، والترمذي في الديات (١٤٢١)، وقَالَ الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٩٤، ٤٠٩٥)، وصححه الألباني، وأحمد ٣/ ١٩٠ عن سعيد بن زيد ﷺ (١٦٥٢)].

ولقد أكد الإسلام وشدد على حرمة الأعراض وقرنها بحرمة الدماء كما ورد في خطبة الوداع التي ألقاها رسول الله ﷺ في الجموع الغفيرة من الصحابة الكرام وفيها قال: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا...**».

[البخاري في العلم (٦٧)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩)].

وقال ﷺ أيضًا: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا**». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**». [مسلم في البر والآداب (٢٥٦٤)، وأحمد ١٣/ ١٥٩ عن أبي هريرة ﷺ (٧٧٢٧)].

ومن هدي الإسلام في حماية الأعراض أمره بالدقة والتحري في النقل والتثبت من الأخبار، وتحريمه للسخرية بالآخرين والاستهزاء بهم وتحقير شأنهم، وتحريمه للظن السيئ في غير ريبة وتحريمه للتجسس وتتبع العورات، وتحريمه للغيبة، وحثه على الستر على المسلمين والزود عن أعراضهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحُجُرات].

والتبين هو التحري والدقة والاستيثاق والاستيضاح والتثبت والتحوط والتحري والدقة في النقل، وفي الآيات التي نزلت في أعقاب حديث الإفك يقول ﷻ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٞ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾ [النور].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحُجُرات].

حرم الإسلام السخرية بالآخرين وتحقير شأنهم؛ لأن ذلك يتنافى مع حقوق الأخوة الإسلامية، كما حرم اللمز وهو العيب، يُقال: لمزه أي عابه، ورجل لـمَّاز ولُـمزة أي عياب وطعان.

وحرم الإسلام أيضًا التنابز بالألقاب أي التلقب بالألقاب القبيحة التي توغر الصدور وتحقر من الآخرين، كما حرم الإسلام سوء الظن بالمسلمين في غير ريبة وتتبع عوراتهم والتجسس عليهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحُجُرات: ١٢].

وفي الآيات التي نزلت في حديث الإفك يقول ﷻ: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣﴾ [النور].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَنَافَسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا**».

[مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٣). والتحسس والتجسس قيل هما بمعنى واحد وهو تتبع العورات وطلب معرفة الأخبار الغائبة والأحوال الخفية، وقيل: التحسس بالحاء الاستماع لحديث القوم وبالجيم البحث عن العورات، وقيل: بالجيم التفتيش عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال في الشر، وقيل: بالجيم أن تطلبه لغيرك وبالحاء أن تطلبه لنفسك.. والله تعالى أعلم ـ المرجع السابق ١٦/ ١١٩ بتصرف. والتنافس هنا الرغبة في الشيء وحب التفرد به فهي من الأنانية والأثرة، والتنافس على الدنيا: التكالب عليها والتناحر على عَرَضِها الزائل].

وعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ! لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ**». [أبو داود في الأدب (٤٨٨٠)، وقال الألباني: حسن صحيح، وأحمد في مسنده ٣٣/ ٢٠ رقم ١٩٧٧٦ وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره، وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ٩٤ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات].

وعَنْ مُعَاوِيَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ**». [أبو داود في الأدب (٤٨٨٨)، وقال الألباني: صحيح].

وعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: أُتِيَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ فَقِيلَ: هَذَا فُلاَنٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْرًا، فَقَالَ عَبْدُ الله ﷺ: «**إِنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ، وَلَكِنْ إِنْ يَظْهَرْ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذْ بِهِ**».

[أبو داود في الأدب (٤٨٩٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد].

وعلى المسلم أن لا يضع نفسه في مواضع الشبهات، ولا يزج بها في مواطن التهمة والريبة قال زيد بن ثابت ﷺ: **إني لأكره أن أُرى في مكان يُساء بي الظن**.

وقال الربيع بن أنس [(١)]: **مكتوب في الحكمة: من يصحب السوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل السوء يتهم، ومن لا يملك لسانه يندم**.

وحسبنا في هذا المقام ما ورد في الصحيحين عن عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ﷺ أَنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ مَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكُمَا! إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**»، فَقَالَا: سُبْحَانَ الله يَا رَسُولَ الله! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ**

(١) هو الربيع بن أنس البكري الخراساني روي عن أبي العالية رفيع بن مهران، صدوق له أوهام توفى سنة ١٤٠ هـ تنظر ترجمته في: تقريب التهذيب لابن حجر ص ٢٠٥.

الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا».

[البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٥)، ومسلم في السلام (٢١٧٥)].

كما حرم الإسلام الغيبة لما فيها من هتك للأعراض وإساءة للآخرين قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ**»، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**». **[مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٩)، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٤)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٣)، وأحمد ١٤/ ٥٣٧ رقم ٨٩٨٥].**

كما دعا الإسلام إلى الزود عن أعراض الناس ورد غيبتهم، فَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

[الترمذي في البر والصلة (١٩٣١)، وقال: حديث حسن. ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن أبي الدرداء ولفظه: نال رجال من رجل عند النبي ﷺ فرد عنه رجل فقال رسول الله ﷺ: «من رد عن عرض أخيه كان له حجابًا من النار» يراجع: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث للهيثمي ٢/ ٨٣٦ حديث ٨٨١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

[مسلم في البر والآداب (٢٥٩٠)].

فعلى كل مسلم أن يصون لسانه، وأن يصون سمعه، وأن يعلم أن اللسان والأذن أمانة، وأنه سيحاسب عليهما يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء].

وقال ﷻ في سياق الحديث عن صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

ويقول ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور].

وقال ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**».

[الترمذي في الزهد (٢٣١٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)، وصححه الشيخ الألباني].

وفي حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ حين قَالَ له ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟** «قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟**»، قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ الله، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**»، فَقُلْتُ: يَا

نَبِيَّ الله! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

[الترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

[البخاري في الرقاق (٦٤٧٨)].

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ». [البخاري في الرقاب (٦٤٧٤)].

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ». [الترمذي (٢٤٠٦)، وقال: حديث حسن حديث، وأخرجه أحمد في مسنده ٥/ ٢٩. وأخرجه ابن المبارك في الزهد حديث ١٣٤، والحديث بشواهده في رتبة الصحيح لغيره، ولقد صححه الألباني].

ومن شعر الإمام الشافعي:

أَمْسِكْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ ... لا يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ

كَمْ فِي المَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ ... كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ

[ديوان الإمام الشافعي ص٨٢ ط ـ مكتبة المعرفة ـ حمص ـ سوريا].

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيمًا مِنَ الأَذَى ... وَحَظَّكَ مَوْفُورُ وَعِرْضُكَ صَيِّنُ

لِسَانَكَ لا تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ ... فَكُلُّكَ عَوَرَاتُ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنُ

وَعَيْنَكَ إِنْ أَبْدَتْ إِلَيْكَ مَعَايِبَ ... فَصُنْهَا وَقُلْ يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُنُ

وَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ وَسَامِحْ مَنِ اعْتَدَى ... وَفَارِقْ وَلَكِنْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

[ديوان الإمام الشافعي ص٨٥].

عِفّوا تَعُفُّ نِساؤكُمْ فِي المُحْرَمِ ... وَتَجَنَّبُوا مَا لا يَلِيقُ بُمُسْلِمِ

مَنْ يَزْنِ فِي بَيْتٍ بِأَلْفَيْ دِرْهَمٍ ... يُزْنَ فِي بَيْتِهِ بِغَيْرِ الدِّرْهَمِ

مَنْ يَزْنِ يُزْنَ بِهِ وَلَوْ بِجِدَارِهِ ... إِنْ كُنْتَ يَا هَذَا لَبِيبًا فَافْهَمِ

إِنَّ الزنَا دَيْنٌ فَإِنْ أَقْرَضْتَهُ ... كَانَ الوَفَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَاعْلَمِ

يَا هَاتِكًا سِتْرَ الرِّجَالِ وَقَاطِعًا ... سُبُلُ المَوَدَّةِ عِشْتَ غَيْرَ مُكَرَّمِ

لَوْ كُنْتَ حُرًّا مِنْ سُلالَةِ طَاهِرٍ ... مَا كُنْتُ هَتَّاكًا لِحُرْمَةِ مُسْلِمِ

[المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ٢/ ٧٨٧-٧٩٤].

٣ ـ عظمة العِرض:

«في حديث الإفك بيان لعظمة العِرْض، فلا يصح التهاون فيه، إذ موضوع الآيات التي نزلت في تبرئة عائشة ﵂ في عرضها». [فقه السيرة للزيد ٤٨٥، وينظر للتفصيل: صيانة الإسلام للعرض والنسب (ماجستير) ـ د/ شريف بن علي الشريف ـ إشراف د/ محمد خليل هراس ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الملك عبد العزيز (أم القرى) ـ مكة المكرمة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م ـ ٤١٨ ص].

٤ ـ التعامل مع الإشاعة:

يقول د/ الزيد: «في قصة الإفك درس في التعامل مع الإشاعة، فالله ﷻ يقول: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور].

فالمسلم يظن بأخيه الظن الحسن، ولا يقبل أي خبر جارح إلا بالبينة الكافية وإلا فهو عند الله من الكاذبين، كما رأينا في قصة أبي أيوب وأم أيوب ﵄». [فقه السيرة للزيد ٤٨٦].

٥ ـ أثر الإشاعة وخطرها:

يقول د/ أبو فارس: «إن الذي يقرأ حديث الإفك، ويتدبر أحداثه، يشعر بأثر الإشاعة الكاذبة وخطرها على وحدة الصف المسلم.

لقد كان لهذه الإشاعة آثار عامة محزنة شملت المسلمين بصورة عامة، وشملت عائشة ﵂ ووالديها وزوجها رسول الله ﷺ.

فالمسلمون قد تعطلت أنشطتهم، وتوقفت سراياهم وغزواتهم، وانشغلوا جميعًا بهذه الإشاعة، لا يقر لهم قرار، ولا هم في استقرارهم، فهم بين قليل مصدق لها لعب المنافقون بعقله فشارك في الإفك وتكلم فيه، وبين كثير مكذب لها يرفضها، ولا يسمح لنفسه بأن تحدثه بشيء منها، وبين ساكت قد جمدت الكلمات على لسانه.

ولم يقف الأمر عند هذا بل امتد الأمر إلى فتنة كادت تعصف بوحدة المسلمين، وتدمر بنيانهم، وتزلزل كيانهم، وتمزق شملهم، تلك المشاتمة التي حدثت بين زعيمي الأوس والخزرج وانتقلت إلى القبيلتين.

إن حكمة النبي ﷺ هي التي تداركت المسلمين فأخمدت نار الفتنة، إذ هب النبي ﷺ فورًا بالإصلاح بين الناس، وتسكين القلوب، فهدأ الناس وسكنوا.

أما عائشة ﵂ فلقد حزنت حزنًا شديدًا، وبكت بكاء مرًّا، حتى كاد ينفلق قلبها كما وصفت، وخرت مغشيًا عليها حين سمعت بالإشاعة التي تشاع من حولها، وأصابتها حمى شديدة هزت أوصالها، وارتعدت منها فرائصها، وبلغ الحزن منها مبلغًا دفعها إلى التفكير بالانتحار.

قال ابن حجر: «وَعِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ بِإِسْنَادٍ صَحِيح عَنْ أَيُّوب عَنْ اِبْن أَبِي مُلَيْكَة عَنْ عَائِشَة قَالَتْ: «**لَمَّا بَلَغَنِي مَا تَكَلَّمُوا بِهِ هَمَمْتُ أَنْ آتِيَ قَلِيبًا فَأَطْرَحَ نَفْسِي فِيهِ**» وَأَخْرَجَهُ أَبُو عَوَانَة أَيْضًا».

[مجمع الزوائد ٩/ ٣٨٣-٣٨٤ كتاب المناقب (١٥٣٠١)، وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط [١/ ١٨٤]، [والكبير ٢٣/ ١٢١]، ورجالها ثقات]. [فتح الباري ١٠/ ٨٠].

وأما والداها فتأمل حالها وهما يسمعان الإشاعة التي تسيء إلى عفة ابنتهما، وتأمل حالها وهما يريانها لا ينقطع بكاؤها، ولا تكتحل عيناها بالنوم، وتأمل حالها والنبي ﷺ يسأل عائشة رضي الله عنها عن حقيقة ما يشيعه الناس من أخبار حولها، وأن تستغفر إن اقترفت شيئًا مما ينسب إليها، فتقول لهما: أجيبا رسول الله ﷺ، فيقولا: والله لا ندري ما نقول لرسول الله ﷺ.

وتأمل حال النبي ﷺ يشكو من عبد الله بن أبي بن سلول على المنبر فيقول: «**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي**».

هذا ولقد أثرت هذه الشائعة على نفس النبي ﷺ فغيرت من رقة معاملته ﷺ لعائشة رضي الله عنها، خاصة في أيام مرضها، وقد ألفت منه المودة والحنو والرحمة تجاهها.

إن الموقف السليم من هذه الإشاعة هو قتلها في مهدها بعدم الحديث فيها، وعدم نقلها للآخرين ولو على سبيل الإخبار؛ لأن إشاعتها تخدم أغراض مروجيها من تشكيك بالحرائر العفيفات، لابد أن يبادر كل من يسمعها على الفور بتكذيبها؛ لأنها إشاعة حول زوجة الرسول ﷺ، فالرسول لا ينكح إلا المرأة الطيبة العفيفة، والشرير ينكح شريرة مثله في الغالب، فالطيبات للطيبين والطيبون للطيبات، والخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات.

قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور].

ورضي الله عن أبي أيوب الأنصاري حين سألته زوجه رضي الله عنها: «يَا أَبَا أَيُّوبَ، أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ؟ قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ الْكَذِبُ، أَكُنْتِ يَا أُمَّ أَيُّوبَ فَاعِلَةٌ؟ قَالَتْ: لَا وَاللهِ، مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَهُ، قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللهِ خَيْرٌ مِنْكِ».

إن على المسلمين إلا يخدموا أعداءهم بتكرار إشاعاتهم وترديدها على ألسنتهم، فإن في لوكها بالألسنة وجريانها عليها خدمة لأهداف أعدائهم، وتحقيقًا لأغراضهم الخبيثة، وهي شيوع الفاحشة في الذين آمنوا». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦١-٦٤، وينظر للتفصيل: حديث الإفك للمقدسي ص ٨٢-٨٤].

٦ ـ الإعلام القرآني وإعادة الثقة إلى المجتمع الإسلامي:

يقول د/ رشوان: «لقد اشتملت آيات حديث الإفك ـ من الآية رقم ١١ إلى ٢٦ من سورة النور ـ على كل الحقائق التي توضح أبعاد حديث الإفك، وما اكتنفه من وقائع ومشاهد، وما كشف عنه من دوافع وسلوكيات لمروجي شائعة الإفك، من المنافقين، ومعاونيهم من ضعيفي الإيمان، وما عرض من أدلة وبراهين، على براءة ساحة السيدة عائشة أم المؤمنين ﵂، وصفوان بن المعطل السلمي ﵁، إلى غير ذلك من حقائق ومعلومات.

ونظرًا لما ترتب على هذه المعلومات وتلك الحقائق، من كشف للغموض وفضح للافتراءات، وجلاء الموقف بالبراءة، فإن الأمر يتطلب تصحيح المسار الإعلامي، وذلك بنشر هذه الحقائق، وإعادة التوازن إلى الرأي العام الإسلامي؛ ولذلك فقد رأينا أن نشير إلى نشر الحقائق من خلال تأكيد الإعلام القرآني لزيف الإفك، وتكريم المتهمين، الذين اتهموا زورًا وبهتانًا، ثم إعادة التوازن إلى الرأي العام الإسلامي، وذلك وفقًا للعرض التالي:

(١) **تأكيد الإعلام القرآني لزيف شائعة الإفك، وتكريم المتهمين زورًا**: إنه على الرغم من علم الرسول ﷺ باستقامة زوجه وعفتها، إلا أنه كان ينتظر الدليل القاطع بوحي إلهي.

[لمحات نفسية في القرآن الكريم ـ د/ عبد الحميد محمد الهاشمي ـ سلسلة دعوة الحق العدد ١١ ـ الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة ـ السنة الثانية صفر ١٤٠٢ هـ ص ١٧٠].

وأن نزول القرآن بتبرئة عائشة ﵂، لا يُعد إعلانًا تأكيديًّا لتبرئتها من قِبل الله ﷻ، الذي يعلم السر وأخفى فحسب، بل هو إعلان تأكيدي أيضًا لزيف الشائعة المغرضة، التي أُطلقت للنَّيْل من عِرض الرسول ﷺ.

وإنه إلى جانب ذلك يعتبر إعلانًا تأكيديًا لتكريم الله ﷻ لعائشة ﵂، أن ينزل في حقها قرآنًا يُتلى، يبرئ ساحتها، ويُعلي من منزلتها ومكانتها في الإسلام، ويثبت لها الأجر الجزيل في الفرية عليها، وموعظة للمؤمنين، والانتقام من المفترين.

[صفوة التفاسير ـ د/ محمد علي الصابوني ـ دار القرآن الكريم ـ بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م، ٢/ ٣٢٨].

إن آيات حديث الإفك ـ من الآية رقم ١١ إلى الآية رقم ٢٦ من سورة النور ـ وما تضمنته من تفنيد لشائعة الإفك، وإعلان البراءة للسيدة عائشة أم المؤمنين ﵂، والصحابي صفوان بن المعطل السلمي ﵁، تبعًا لذلك، قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بمطلع سورة النور في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾، وهذا إعلان قوي حاسم عن تقرير هذه السورة، وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف، ومن آداب وأخلاق، إن هذا الإعلان يدل على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة عامة، وتنظيم المجتمع الإسلامي في إطار هذا العنصر خاصة. **[في ظلال القرآن لقطب ٤/ ٢٤٨٥-٢٤٨٧].**

إن هذا الارتباط والتكامل بين مطلع هذه السورة وهذه الآيات البينات من سورة النور، دليل على تأكيد الإعلام القرآني لزيف شائعة الإفك، وخاصة أن مطلع هذه السورة هو المطلع الوحيد الفريد في القرآن كله، وخاصة أنه يتضمن كلمة جديدة ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، وهذا تأكيد الأخذ بكل ما في السورة ـ سورة النور ـ على درجة سواء، ففرضية الآداب والأخلاق فيها، كفرضية الحدود والعقوبات لمثل هذه التهم الباطلة، والشائعات المزيفة غير المحققة، التي تفتقد الدليل القاطع، والبرهان الساطع، للتحقيق والإثبات، لأمر حسبوه هينًا وهو عند الله عظيم.

(٢) **إعادة التوازن إلى الرأي العام الإسلامي:** لقد اهتز الرأي العام الإسلامي بما أحدثته شائعة الإفك، من بلبلة في الأفكار، وتخلخل في الصفوف، وتوتر في العلاقات، وانقسام في الرأي حول صحة هذه الشائعة، إلى غير ذلك من تأثيرات لهذه الشائعة المدمرة.

ونظرًا لما ترتب على ذلك من توتر العلاقات بين مفردات المجتمع الإسلامي بشكل عام، وتوتر العلاقة بين أبي بكر الصديق ﷺ ومسطح بن أثاثة، والمشايعين له بشكل خاص؛ لذلك نود أن نشير على إعادة التوازن في هذه العلاقات على النحو التالي:

(أ) **إعادة توازن العلاقات بين مفردات المجتمع الإسلامي بشكل عام:** فعلى الرغم من أن أحداث ووقائع حديث الإفك، لم تستمر أكثر من شهر، فإن تأثيرها كان يفوق مئات السنين؛ نظرًا لما أحدثه هذا الحديث من ضجة وتصدع في العلاقات بين مفردات المجتمع الإسلامي، وما تركه من إحساس بالظلم لدى عائشة ﵂، وصفوان بن المعطل السلمي ﷺ، وإحساس بالنصر والزهو لدى المنافقين والمشايعين لهم.

ومع انكشاف أمر هؤلاء المروجين للشائعة، وفضح مكيدتهم، ومع تفجر نور الحق بالبراءة بعد ذلك، بآيات من عند الله، استعاد الرأي العام الإسلامي توازنه، والتف المؤمنون حول الرسول ﷺ، في ثقة واعتزاز، مؤيدين ومجددين العهد، على الحفاظ على دينهم، وتماسك وحدتهم، وتوحيد صفوفهم وكلمتهم.

أما أبو بكر الصديق ﷺ فقد استسلم فور سماعه قول الحق: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾، أي ولا يحلف الصالحون وذو اليسار منكم ـ يقصد أبا بكر ﷺ ـ على أن يمنعوا إحسانهم ممن يستحقونه من الأقارب والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ـ يقصد مسطح بن أثاثة ـ وغيرهم، لسبب من الأسباب الشخصية، كإساءتهم إليه، ولكن عليهم أن يسامحوهم ويُعرضوا عن مجازاتهم، وإذا كنتم تحبون أن يعفو

الله عن سيئاتكم، فافعلوا مع المسيء إليكم، مثل ما تحبون أن يفعل بكم ربكم، وتأدبوا بأدبه، فهو واسع المغفرة والرحمة. [المنتخب من تفسير القرآن الكريم ـ لجنة القرآن والسنة ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ـ الطبعة العاشرة ـ رمضان ١٤٠٤هـ/ يونيه ١٩٨٤م، ص ٥٢٠].

(ب) **إعادة توازن العلاقة بين أبي بكر ومسطح بن أثاثة** ﷺ: إن حديث الإفك وما تخلله من تورط مسطح بن أثاثة في ترويج هذه الشائعة البغيضة، قد أثار حفيظة أبي بكر الصديق ﷺ، كوالد لعائشة ﷺ، وكصديق وفي للرسول ﷺ، الأمر الذي حمله على الحلف بألا ينفق على مسطح بن أثاثة ـ حيث كان ينفق عليه لقرابته وضعف حاله كما سبق أن قدمنا ـ الأمر الذي أغضب مسطح بن أثاثة، وأغاظ المشايعين له، مما كوَّن معه رأيًا عامًّا مضادًّا لأبي بكر الصديق ﷺ.

ولقد تصاعدت حدة التوتر في العلاقة بين أبي بكر ﷺ ومسطح بن أثاثة، مع تفاقم أحداث ووقائع حديث الإفك، وتزايد تأثير هذه الشائعة الخبيثة بين مفردات المجتمع الإسلامي، واستمر هذا التصاعد، وهذا التوتر، إلى أن نزلت آيات البراءة في حديث الإفك، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾، الأمر الذي أحدث معه تحولًا تامًّا، في موقف أبي بكر الصديق ﷺ، تحوُّل بالاستسلام لقول الحق تبارك وتعالى، ونزولًا لحكمه سبحانه.

لقد استسلم أبو بكر ﷺ لهذا التوجيه الرباني، مسارعًا بقوله: «**بل نحب، بل نحب أن يغفر الله لنا**»، وفي الحال أعاد أبو بكر ﷺ الإنفاق على مسطح بن أثاثة، وعاد الحب بينه وبين مسطح والذين عاونوه، إلى أن أصبح التآلف والمودة بينهم من أهم السمات المميزة للعلاقات بين مفردات المجتمع الإسلامي.

وهكذا استرد الرأي العام الإسلامي استقراره وتوازنه، والثقة في الرسول ﷺ، وأهل بيته الكرام». [حديث الإفك من المنظور الإعلامي لرشوان ١٠٧-١١٢].

المطلب الخامس
الدروس السياسية

١ ـ تدبيرات المنافقين السياسية:

يقول أ/ باشميل: «وأثناء عودة الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق هذه، قال المنافقون في أم المؤمنين عائشة ﷺ تلك المقالة الخبيثة من الإفك، الذي به نالوا عرض رسول الله ﷺ حتى آذوه أشد الإيذاء وجعلوه عرضة لأعنف الآلام النفسية وأشدها.

كان رأس النفاق، ممثل عصبة اليهود والمنافقين، عبد الله ابن أُبي بن سلول، موجودًا ضمن الجيش الإسلامي الذي غزا بني المصطلق، وكان هذا المنافق المجرم، لا يجد فرصة يكيد فيها للإسلام ويحط من شأن رسالته إلا اغتنمها.

وبينما هذا المنافق الأكبر موجودًا في المعسكر بين قومه الخزرج، إذا بالصحابي الجليل صفوان بن المعطل يمر بهودج أم المؤمنين عائشة ﵂، فيقول هذا المنافق ابن أُبي: من هذه؟ فيقولون: عائشة ﵂، فيقول المنافق الأكبر: والله ما نجت منه ولا نجا منها، ثم يعقب على ذلك بقول: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها.

هذه القولة الخبيثة المنكرة، هي الشرارة الأولى التي أشعلت حديث الإفك، فكانت بسببها معركة كبرى من الآلام خاضها النبي ﷺ طيلة شهر كامل.

لقد كان حديث الإفك من تدبيرات المنافقين القاتلة، وهو أحد الأسلحة السياسية الكبيرة الفتاكة التي تلجأ إليها عصابة النفاق للكيد للإسلام وتفريق كلمة المسلمين وتفتيت وحدتهم.

ولقد نظم المنافق الأكبر وحزبه حملات واسعة أشاع بها هذا الحديث المفترى، وروَّج له بدقة وإحكام حتى انخدع به كثير من المسلمين، فخاض فيه منهم من خاض، حتى وصل البعض منهم في الخوض في هذا الحديث المفترى، إلى الدرجة التي بها أُقيم عليه الحد، كحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، ومسطح بن أثاثة، وقد تضخم حديث الإفك حتى صار شغل أهل المدينة الشاغل.

ولقد آتت مساعي عصبة الإفك والنفاق ثمارها إلى حد بعيد، فقد فعلت حملات الإفك الظالمة فعلها المخيف في نفوس المجتمع الإسلامي.

وحتى ذلك القلب الكبير النقي الطاهر، قلب النبي محمد ﷺ صار عرضة لنزوع الشك والحيرة والقلق، فقد أثرت تلك الإشاعات الكاذبة في نفسه فأعرض عن زوجته الطيبة الطاهرة الحنون، مما اضطرها إلى الانتقال إلى بيت أبيها الصديق ﵁ مشكوكًا فيها من زوجها العظيم، وظلت هناك حتى نزلت براءتها من السماء قرآنًا يُتلى أبد الآبدين.

وكانت محنة، بل أعظم محنة نفسية شاقة مضنية تعرض لها النبي محمد ﷺ في حياته، وهل هناك أعظم وأشد إيلامًا من أن يُطعن الإنسان في عِرضه، وخاصة من هو على مستوى النبوة والقيادة للأمة كلها؟

ولقد استمرت المحنة ـ التي تكلف فيها صاحب أطهر نفس في تاريخ الإنسانية من الآلام ما تنهد له الجبال ـ شهرًا كاملًا انقطع خلاله اتصال السماء بالأرض، وظل فيه ذلك القلب الكبير النقي معلقًا بحبال الشك تعتصره الآلام التي أخف منها آلام طعن الرماح ووقع السيوف.

أما آل الصديق، أما بنت الصديق، أما زوج الصديق، أما الصديق نفسه، ذو الوقار المتناهي والحساسية المرهفة والطيبة الكاملة، فقد كانت مصيبتهم أعظم من أن توصف، ويا لها من مصيبة، وهل هناك أعظم من أن يُصاب بيت كريم رفيع العماد بالطعن في عرض ابنته.. وزوجة من؟؟.. زوجة محمد بن عبد الله ﷺ، حبيب أبيها ورفيقه في النضال والجهاد منذ بزغت شمس الإسلام على هذه الأرض.

ولقد عقد هول الفاجعة ألسنة أهل ذلك البيت الطاهر بيت الصديق الأكبر، فكانوا أمام تلك الإشاعات الظالمة الكاذبة المدبرة المغرضة التي أغرقت المدينة، لا يحيرون جوابًا، وماذا عساهم أن يقولوا، والشك في ابنتهم قد تسرب إلى قلب زوجها النبي ﷺ نفسه، ولقد انطوى أهل البيت الطيب الوادع الكريم على أنفسهم، يهد منهم الألم بعنف وضراوة وهم لا يدرون ما يصنعون أو يقولون، أمام هذه النازلة التي امتحنهم الله بها، ولقد فاض الألم المدمر على لسان ذلك الرجل الوقور الصابر المؤمن، الذي استفزته ضراوة ألم تلك الإشاعات القاتلة مرة فقال: **والله ما رُمينا بهذا في جاهلية، أفنرضى به في الإسلام؟**

وعندما قالت له ابنته البريئة المعذبة المظلومة (والألم يطحن قلبها الأبيض الطاهر): أجب عني رسول الله ﷺ قال ـ في ألم وإشفاق: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

حقًّا لقد كان حادث الإفك معركة آلام عنيفة طاحنة خاضها البيت النبوي الكريم، وأضنت جروحها الثخينة قلوبًا كبيرة طاهرة نقية، وكادت تودي بنفوس بريئة كمدًا وغمًّا».

[غزوة الأحزاب لباشميل ٩٧-٩٩].

٢ ـ دسيسة الإفك خِسَّة وفجور نفاقي لئيم كفور وخبث يهودي حقود:

يقول الشيخ عرجون: «وفي هذه الغزوة الممحصة للإيمان وقعت أخطر حادثة أدخلت على كل مسلم ومسلمة من البلاء ما لم يدخل عليه مثله في محن الشدائد والأزمات التي ابتلي بها المسلمون، فقابلوها بصبر لم يتجرعوا مرارته في كارثة من كوارث الحياة، ولكنهم تجلدوا لها، واحتملوا لهيب نيرانها وهي تشوي قلوبهم وأكبادهم، وتحرق أفئدتهم؛ لأنهم فوجؤوا بها، فلم يعرفوا لها مدخلًا ولا مخرجًا؛ لأن المقادير الإلهية أرادتها لتكون أبلغ درس في التربية الاجتماعية للمجتمع المسلم، تلك هي حادثة أسوأ مكر، وأخبث فجور كاد به المنافقون هذا المجتمع القائم في تركيبه الإيماني والاجتماعي على الطهارة والتطهر من دنس الأرجاس الحسية والمعنوية.

كان المجتمع المسلم قد أنهى معركة بني المصطلق بنصره المؤزر على جموعهم، ونادى منادي رسول الله ﷺ بالرحيل من ديار العدو، وأخذ المجاهدون في الترحيل بعد أن صفوا هذا الجيب المتواري من جيوب التربص بالمجتمع المسلم ممثلًا في قبيلة بني المصطلق وهي واقفة تؤرجحها الحيرة فلا تتقدم ولا تتأخر، يملكها الرعب فتنزوي في جحورها، ويعبث بها الفزع والهلع يقيمانها بين الحرب والسلم.

وكانت انتصارات رسول الله ﷺ تفعم قلوب المنافقين غيظًا وحنقًا، تعترض في حلاقيمهم غصة تكتم أنفاسهم، فلا يتنفسون إلا من وراء أستار الظلام؛ لأنهم جبناء رعاديد، ليس لديهم من الشجاعة ما يجعلهم يُظهرون ما يُبطنون، ولا يستطيعون أن يقفوا في ميادين القتال هنا أو هناك، فهم كفار فجرة

إذا خلوا إلى شياطينهم من خبثاء اليهود، وهم مسلمون إذا رأوا راية الإسلام تخفق بالنصر، ولكنهم كما وصفهم الله تعالى في قوله عز شأنه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة].

تلك هي حادثة التقول بالكذب والباطل، والافتراء المختلق في مصانع النفاق والفجور على أطهر الطاهرات المطهرات، الصدِّيقة بنت الصديق رضي الله عنهما، حبيبة سيد الخلق محمد ﷺ أم المؤمنين السيدة العظيمة عائشة رضوان الله عليها». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٠-٢٢١].

٣ ـ سهم (الإفك) الذي كاد يقوض دعائم تبليغ الرسالة:

يقول الشيخ عرجون: «تلك هي فتنة (الإفك) التي أشعل ثقابها وأورى نارها زعيم المنافقين ورأس النفاق عبد الله بن أُبي بعد أن خاب سعيه في إشعال نيران الفتنة الجاهلية، فخبَّ فيها وأوضع خلال صفوف المجتمع المسلم يبغيه الفتنة، وفي المجتمع المسلم سماعون له ولأضرابه من أحلاس النفاق وغثاء المنافقين، ومرضى القلوب الذي كانت رواسب الوثنية الجاهلية والعصبية القومية تحتل من أنفسهم مكانًا فسيحًا.

وفي هذه الفتنة الخرساء قاء ابن أُبي كل ما في قلبه من عصارة النفاق الكفور، وتبذلت جراح حقده عن صديد الكفر المنافق والفجور الخبيث.

وبهذه الروح الفاجرة الخبيثة تولى ابن أُبي كِبْر هذه الفتنة المرذولة السمجة، والبهتان المفترى، والإفك المختلق، وانضوى تحت جناحه من كان على شاكلته في النفاق من الذين أحرقت عصبية الجاهلية أفئدتهم في صدورهم، وأذابت أكبادهم بين ضلوعهم، فنفثوا دخان الغيظ الخانق والحنق المغيظ، وتقولوا بالباطل على أطهر الطاهرات، الصدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما، حتى أبطله الله تعالى بما لم يبطل به فرية وبهتانًا قط، وحتى غدا شر هذا الإفك الكذوب خيرًا لكل من ناله منه رشاش، وباء المبطلون الأفاكون بالعار والشنار، ولُطِّخت وجوههم بالخزي والخذلان، وطحنهم كلكل الخطاب الإلهي المحفوف بكل سمات التبجيل والتعظيم للسيدة الطاهرة ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾[النور] تنويهًا بعظمة سيد المرسلين ﷺ، وبيانًا لعلو مكانته عند ربه، وإعلاء لمقام حرماته، وتطهيرًا لساحته ـ طحنًا أذاب منهم كل ذرة من ذرات الإنسانية في هذه الحياة ن ولعذاب الآخرة أخزى وأعظم.

وكان هذا النصر المؤزر في هذه الحروب النفسية أجل وأعظم أثرًا من النصر المؤيد في جولات القتال في ميادين الحروب». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٨].

٤ ـ القضاء على الفتنة:

يقول أ/ باشميل: «وبذلك انتهى حديث الإفك وبطل مفعوله المدمر فقضى على تلك الفتنة الاجتماعية التي كادت تذهب بوحدة المسلمين، بل وتثير بينهم حربًا أهلية طاحنة، فتزلزل بنيان هذا الدين الوليد.

ووالله ما قصدت عصبة النفاق من تضخيم حديث الإفك والتنظيم لإشاعته إلا تفريق كلمة المسلمين بإثارة النزعات بينهم؛ لأن هذه العصبة الخبيثة تعلم أن إشاعة مثل هذا الحديث الخطير سيكون مثار جدل واختلاف بين المسلمين، يصل بهم إلى درجة التلاحي وإثارة النعرات القديمة مما قد يكون سببًا في إثارة حرب قبلية بين الخصمين القديمين العنيدين (الأوس والخزرج) ولقد كاد يحدث ذلك فعلًا، وذلك هو الغاية الكبيرة التي يهدف إلى تحقيقها حزب النفاق الذي حمل لواء حديث الإفك وقام (بطرق مدروسة ملتوية) بإشاعته، فباعث الحديث هذا (في حد ذاته) هو باعث سياسي خبيث ذو مرامي بعيدة، ويكفي لتأكيد ما نقول أن مطلق شرارة فتنة حديث الإفك، هو رأس النفاق عبد الله بن أُبي، الذي منذ وطئت قدما الرسول الأعظم ﷺ تراب المدينة المنورة، وهو يحيك الدسائس وينظم المؤامرات ضد هذا النبي الكريم ﷺ والدين القويم الذي جاء به». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٠٩].

٥ ـ خسة نفوس المنافقين في حربهم لرسول الله ﷺ:

يقول الشيخ الغزالي: «عندما كان الإسلام دعوة تغالب النظام السائد كانت مخاصمته تتخذ طريق الجهرة والتهجم دون مبالاة، فلما استقر له الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة، سلكت عداوته المسارب التي تسلكها الغرائز المكبوتة، فأمسى الكيد له يقوم على المكر والدس إلى جانب الوسائل الأخرى التي يعالن بها الأقوياء، وائتمار الضعفاء في جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء في ميادين الصدام، بل إن المرء قد يألم لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطعنة مواجِهة.

وفي الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التي تصيب العدو، وإن كان بعضها يستحيي من استخدامه الرجل الشريف!

وقد لجأ المنافقون في المدينة إلى مناوأة النبي ﷺ ودعوته بأسلوب تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد، ويغلب عليها الضعف، أسلوب اللمز والتعريض حينًا، والإفك حينًا آخر.

وكلما توطدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضغنًا عليهم وتربصًا بهم، وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنهم الرسول ﷺ بالجلاء، فلما لم يُقف مدَّ الإسلام شيء، ولم تهدَّه هزيمة، وأخذت القبائل العادية تختفي واحدة تلو أخرى، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ولم

تنكشف نياتهم السوء إلا على فلتات الألسنة ومزالق الطباع، فكانت سيرتهم تلك مثار فتن شداد تأذى منها رسول الله ﷺ والمؤمنون شيئًا غير قليل.

وظهر ذلك جليًّا في «غزوة بني المصطلق»، فقد نصر الله نبيه ﷺ والمسلمين، على أن هذا النصر الميسر شابه من أعمال المنافقين ما عكر صفوه وأنسى المسلمين حلاوته، بما رأينا من إبراز زعيم النفاق العصبية القبلية مرة أخرى فيما حدث بين الغلامين المهاجري والأنصاري.

وقضى النبي ﷺ على هذه الفتنة، وأنزل الله ﷻ سورة المنافقين في بيان شنائع هؤلاء المنافقين.

ولم يدُر بخاطر أحد أن هذه الأوبة المتعجلة سوف تتمخض عن أكذوبة دنيئة يحيك أطرافها «عبد الله بن أُبي» ثم يرمي بها بين الناس، فتسير مسير الوباء الفاتك.

إن هذا الرجل حلف كاذبًا بعد أن أنكر مقالته الثابتة، ولو أن الجبان ذهب يطلب النجاة من عقباها لكان ذلك أجدى عليه، لكنه لم يزدد ـ على السماح الذي قوبل به ـ إلا خسة وخصامًا، والبون بعيد بين أصناف الرجال الذين عادوا الإسلام ورسوله، لقد كان «أبو جهل» خصمًا لدودًا لكل من دخل هذا الدين، وكان طاغية عنيدًا لا تنتهي لجاجته، إلا أنه كان كالضبع المفترس لا يحسن الالتواء والوقيعة، حمل السيف في وضح النهار، وما زال يقاتل به حتى صُرع.

أما عبد الله بن أُبي فقد اختفى كالعقرب الخائنة، ثم شرع يلسع الغافلين.

قَبَعَ هذا المنافق في جنح الظلام، وبدأ ينفث الإشاعات المريبة.

وتدلى ـ في غوايته ـ إلى حضيض بعيد، فلم يبال أن يتهجم على الأعراض المصونة، وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جبين الحرائر العفيفات.

في عودة الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق إلى المدينة، نبت حديث الإفك وشاع، واجتهد خصوم الله ورسوله أن ينقلوا شرره في كل مكان قاصدين ـ من وراء هذا الأسلوب الجديد في حرب الإسلام ـ أن يدمروا على الرسول ﷺ بيته، وأن يسقطوا مكانة أقرب الرجال لديه، وأن يدعوا جمهور المسلمين ـ بعد ذلك ـ يضطرب في عماية من الأسى والغم!

وللوصول إلى هذه الغاية استباح ابن أُبي لنفسه أن يرمي بالفحشاء سيدة لما تجاوز مرحلة الطفولة البريئة، لا تعرف الشر، ولا تهم بمنكر، ولا تحسن الحياة إلا في فلك النبوة العالي، وهي التي تربت في حجر صدِّيق، وأعدت لصحبة نبي في الدنيا والآخرة. وتلقف العامة هذا الحديث الغريب، وهم في غمرة الدهشة لا يدرون مبلغ الخطر الكامن في قبوله ونقله». [فقه السيرة للغزالي ٢٩٥، ٢٩٨].

ويقول د/ قلعجي: «حديث الإفك هو حلقة في سلسلة الحرب النفسية السياسية التي خطط لها اليهود وأذنابهم من المنافقين ضد الدولة الإسلامية، وإذا ما علمنا ما للعِرْض من أثر في الحياة العربية، علمنا حجم الأثر الذي ستتركه هذه الإشاعة، وقد استطاع المنافقون التغرير بأفراد من المسلمين، فخاضوا معهم فيما خاضوا فيه من الإفك.

لقد أشاع المنافقون الإفك حتى ترددت أصداؤه في أنحاء الدولة الإسلامية، وهم يعلمون أن الحديث ليس له أصل، وإنما أطلقوه لأنهم يعلمون أن رسول الله ﷺ لن يقيم حد الزنا على زوجته السيدة عائشة ولا على المتهم صفوان بن المعطل، لا لأن عائشة زوجته، ولكن لعدم توفر الدليل المادي على ذلك، وعندها يرجف المرجفون ـ عبد الله بن أُبي بن سلول وجماعة من المنافقين واليهود ـ أن محمدًا قد تستر على جريمة من أكبر الجرائم ـ وهي جريمة الزنا ـ لأن المتهم بها زوجته، وهذا يقدح في رسول الله ﷺ كنبي، وكرئيس دولة.

أما أن يقدح به كنبي: إذ أنه لو كان نبيًّا حقًّا لما جاز له أن يرضى إيواء زانية في بيته، فضلًا عن اتخاذها زوجة له.

وأما أنه يقدح به كرئيس دولة: فإن العدالة التي ينادي بها محمد، والمساواة بين الناس أمام الشرع سرعان ما تصبح أثرًا بعد عين إذا ما مست مصالحه الشخصية، وبذلك يكون حامي الشرع هو أول المنتهكين له، وهذا لا يليق بمسؤول بسيط، فكيف برئيس دولة». [قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ٢٠٨-٢٠٩].

٦ ـ مدى تأثير الحرب النفسية على الرأي العام:

يقول د/ رشوان: «إذا كان حديث الإفك، بكل أحداثه ووقائعه ومشاهده، كان محوره شائعة مغرضة، أطلقها مروجون من المنافقين، ومعاونيهم من ضعيفي الإيمان، فإن الهدف من هذه الشائعة، هو محاربة الإسلام والمسلمين بشكل عام، والنَّيْل من شخص الرسول ﷺ بشكل خاص، مستخدمين في ذلك الحرب الدعائية تارة، والحرب النفسية تارة أخرى، الأمر الذي كان له تأثير خطير في الرأي العام الإسلامي، واهتزاز كيانه وتبلبل أفكاره، إلى غير ذلك من تأثيرات.

ولتوضيح خطورة هذين الحربين؛ لذلك فقد رأينا أن نشير إلى بيان دوافع إطلاق شائعة الإفك، ثم بيان مدى خطورة الحرب الدعائية في حديث الإفك، وبعد ذلك نشير إلى مدى ضرورة التيقظ لأساليب الطابور الخامس (المنافقين)، ومدى تأثير الحرب النفسية في عقيدة المؤمنين، إلى غير ذلك من أساليب وتأثيرات لهذه الحرب النفسية.

(١) **بيان دوافع إطلاق شائعة الإفك**: لقد كشف حديث الإفك عن الدوافع والأسباب، التي كانت وراء إطلاق الشائعات المغرضة، كما أظهرت العوامل التي ساعدت على ترويجها، فالعداء للإسلام

والمسلمين من جانب الكفار والمشركين والمنافقين، والعداء الأكثر للرسول ﷺ، باعتباره النبع الأول للإسلام، والحقد والحسد والغيرة، إلى غير ذلك من دوافع وأسباب.

كما يُضاف إلى ما تقدم استعداد ضعيفي الإيمان للسماع لتلك الشائعات المغرضة؛ لانخداعهم بكلام المنافقين، كل ذلك وغيره يعد جوًّا ومناخًا ملائمًا لإطلاق مثل هذه الشائعات الخبيثة، ويساعد على سرعة ترويجها وانتشارها.

لذلك نود أن نلقي بعض الضوء على هذه الدوافع وتلك الأسباب، من خلال التعرف على مدى عداء الإعلام المضاد لرسالة الإسلام، ومدى الحقد على انتصار المسلمين، ومدى اعتبار الغيرة والحسد دافعًا لترويج هذه الشائعة الباطلة، وذلك وفقًا للعرض التالي:

(أ) **مدى عداء الإعلام المضاد لرسالة الإسلام:** قيم الإسلام ومبادئه، تعد حربًا ضد معتقدات الكفار والمشركين والمنافقين، كما تعد من القيود التي تحد من حرياتهم وملذاتهم؛ ولذلك يقفون بالرفض والعداء لهذه القيم وتلك المبادئ، كما يقفون بالمرصاد لمن ينادي بقيم الإسلام، ويقصدون الرسول ﷺ، بل ويكيدون له كيدًا، بكل أساليب الدس والحرب الدعائية المغرضة، لهدم هذه القيم وتلك المبادئ السامية للإسلام.

فإحساس المنافقين بسرعة انتشار الإسلام بقيمه ومبادئه هذه، جعل زعيمهم عبد الله بن أُبي بن سلول يحنق على الإسلام والمسلمين، وخاصة على الرسول ﷺ صاحب رسالة الإسلام، فكان حنق زعيم المنافقين هذا، على رسول الله ﷺ حنقًا شديدًا؛ لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته وكانوا ينظمون له الخرز ليتوجوه، فلما دخل فيهم الإسلام، صرفهم عن عبد الله بن أُبي بن سلول؛ ولذلك فكان يرى أن الرسول ﷺ، هو الذي استلبه ملكه، وأطاح بكرسي زعامته، وهناك مواقف كثيرة من هذا القبيل، تؤكد مدى حنق عبد الله بن أُبي بن سلول، وحقده وكيده للرسول ﷺ.

(ب) **مدى الحقد على انتصار المسلمين:** إن انتصار المسلمين في المعارك والغزوات المختلفة، ومنها غزوة بني المصطلق، التي نحن بصددها، ملأ قلوب المنافقين غيظًا وحقدًا، وخاصة بعد أن شاهدوا النصر الكامل للمسلمين في هذه الغزوة ـ والتي اشترك فيها عدد كبير من المنافقين ـ وأن يروا سرعة انتشار الإسلام في بني المصطلق وخزاعة، وقد أصبحوا صهرًا للرسول ﷺ.

(ج) **مدى اعتبار الغيرة والحسد كدافع لترويج شائعة الإفك:** أما وأن تكون الغيرة والحسد سببًا ودافعًا لترويج شائعة، والمساعدة على نشرها، فإن هذا قد وقع في حديث الإفك، فعلى سبيل المثال: تورطت حمنة بنت جحش ـ وهي أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين، زوج الرسول ﷺ، وهي بنت

عمته في نفس الوقت ـ حيث تسرعت وانخدعت بكلام المنافقين، هي وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، فحمنة بنت جحش، أخذت تذيع ما يتهامس به الناس، عن عائشة ﵂ ومجيئها مع صفوان بن المعطل السلمي ﵁ حسدًا لها، لما كانت تجده ـ بحسب ظنها ـ من إيثار الرسول ﷺ لعائشة ﵂، على أختها زينب ﵂، التي هي ضرة لعائشة ﵂.

ولعل ما يؤكد أيضًا دافع الغيرة والحسد؛ لترويج مثل هذه الشائعات الخبيثة، ما قالته أم عائشة ﵂، وهي تحاول أن تخفف من جراحات الأزمة، حيث قالت الأم: «يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا».

كما أن حسان بن ثابت كان عونًا لحمنة بنت جحش في ترويج هذه الشائعة الكاذبة، ومن ناحية أخرى كان مسطح بن أثاثة يبسط لسانه بالسوء، وكاد الحديث عن عائشة ﵂ يؤدي إلى فتنة، إلى غير ذلك من أمثلة ومواقف.

(٢) بيان مدى خطورة الحرب الدعائية في حديث الإفك:

إن أهم أسلحة الحرب الدعائية، التي شنها المنافقون، سلاح الشائعات المغرضة، وهو ما يُعرف بحديث الإفك، والتي يمكن أن تُسمى بشائعة الإفك، والتي استهدفت إحداث شك وارتياب وبلبلة الرأي العام الإسلامي، والنَّيل من سمعة الأبرياء، والإساءة إلى الرسول ﷺ، وبث بذور الفتنة والفُرقة، وإثارة الارتباك والفوضى في صفوف المسلمين، بأساليب الدس والغدر والخداع والتضليل، إلى غير ذلك من أساليب خبيثة؛ لتمزيق الأمة الإسلامية وتعويق مسيرتها.

(٣) مدى ضرورة التيقظ لأساليب الطابور الخامس:

إذا كان حديث الإفك قد أظهر خطورة الحرب الدعائية، وما تستخدمه من شائعات مغرضة، وبعد أن تحددت معالم هذه الشائعات، فإنه قد أصبح من الواجب اتخاذ أساليب مضادة لمخططات ومناورات ومؤامرات الطابور الخامس (المنافقين) الذين يمارسون سياسة فَرِّق تَسُدْ، والصيد في ماء عكر، وكذلك الجواسيس... إلخ، وكشف زيف افتراءاتهم وأباطيلهم، والرد على شائعاتهم المغرضة، بعد تحليل مضمونها، وكشف دوافعها والعمل على تبديدها ودحضها بكل الحقائق الثابتة والبراهين والأدلة القاطعة، كما سبق أن أوضحنا، والاستمرار في حالة التنبه والتيقظ؛ لرصد هذه الأساليب، والاستعداد لها في وقت مبكر، بل واتخاذ كل السبل الوقائية لمنع تكرارها.

مدى تأثير الحرب النفسية في عقيدة المؤمنين: إن حديث الإفك ليس مجرد حديث، ولكن كان اختبارًا لمدى قوة إيمان المؤمنين، وثباتهم على عقيدتهم، وثقتهم بالرسول ﷺ، وكشفًا للمنافقين وفضح

أهدافهم، وأساليبهم الخبيثة، ومناوراتهم الدنيئة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾[النور].

فهذا الحديث خير للمؤمنين، بأن ازدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ولما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحي ببراءة عائشة ﵂، وهذا غاية الشرف والفضل، ومن ناحية أخرى، فإن هذا الحديث شر للمنافقين، والذين خاضوا معهم، وما يلحقهم من عذاب في الدنيا والآخرة بأشكال وصنوف مختلفة العذاب».

[حديث الإفك من المنظور الإعلامي لرشوان ٧٩-٨٤].

ويقول د/ السيد: «ذكرنا فيما مضى أن المنافقين أرادوا من وراء هذه الشائعة أن يطعنوا رسول الله ﷺ في عرضه، وأن يلوثوا شرف أم المؤمنين عائشة ﵂، وكان مرادهم من وراء ذلك أن يصوروا النبي ﷺ في صورة الماجن العابث الذي جعل تحته العاهرات من النساء لينتقلوا من ذلك إلى أن محمدًا هذا ليس أهلًا للرسالة ولا للفضيلة، وأن يشككوا فيه القوم ويفرقوهم عنه، لقد كان لهذا الخبر المكذوب أثره البين في بيت النبوة حتى كان ما كان من النبي ﷺ في موقفه من عائشة ليس طعنًا فيها، وإنما هو موقف بَشَر مضى أملًا في أن تأتي البراءة من السماء، وقد كانت، كما تأثر بيت أبي بكر ﵁ جميعه، فبكت عائشة حتى تقلص الدمع في عينيها، وكان مما قاله أبو بكر الصديق ﵁: «**والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام**»، وكان من قول أم رومان أم عائشة ما ذكرته الرواية السابقة، وقد أشارت الرواية أيضًا إلى موقف علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد.

وهكذا كانت الشائعة وهكذا كانت الحرب النفسية ضد رسول الله ﷺ، ولكن كان نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ مكذبًا لكل هذه الادعاءات الكاذبة، وظل بيت النبوة بعيدًا كما هو شأنه عن أي سوء، وظلت عائشة كما هو حالها في أجلى مظاهر النقاء والطهر.

ونزل القرآن الكريم في تصويره وإعجازه، يبين لنا الصدق في أجل معانيه.

حقًّا إنها الحرب النفسية الباغية من العدو المتمثل في المنافقين وعلى رأسهم المنافق الأكبر عبد الله بن أُبي بن سلول، ولا يقول إلا ما هو في صالحه، ولا يفعل إلا ما هو ضد الإسلام ونبي الإسلام، ومن مصلحته ألا تتماسك الهمم والعزائم، ولا يجوز للنبي ﷺ وأصحابه شرعًا وعقلًا ومنطقًا أن يحقق للعدو غرضه الذي يريد، ومن هنا وجدنا الإسلام ونبي الإسلام يقود الرعيل الأول الذي تربى على مائدة الإسلام، وفي المدرسة المحمدية يقودهم إلى سحق محاولات الحرب النفسية الباغية أيًّا كان نوعها، سواء أكانت كلمة تُقال، أو شائعة تنشر أو ادعاءات كاذبة أو مجادلات رديئة أو ما إلى ذلك من أساليب الحرب النفسية التي يريدونها ويقصدون إليها.

فقد وقف المسلمون موقفًا بطوليًّا من الحرب النفسية وقاوموها مقاومة عنيفة بشتى الأسلحة بالصبر حينًا، وبأسلوب الدعاية الحقيقية التي لا مراء فيها ولا التواء أحيانًا أخرى، نعم تلك الدعاية لهذا الدين الجديد بواسطة الحجة والإقناع والدعوة بالتي هي أحسن وضرب أروع الأمثلة وأسماها من خلال التصرفات السلوكية». [دور الحرب النفسية للسيد ٣٤-٤٢].

٧ ـ بذل النصح للقيادة:

يقول د/ أبو فارس: «وحين أشار علي ـ كرم الله وجهه ـ على رسول الله ﷺ بأن يتزوج غير عائشة، لا شك أن هذا آلم عائشة ﵂، ولكن عليًّا ﵁ أراد تحقيق مصلحة أهم من مصلحة عائشة يحدثنا عنها ابن حجر ﵀ بقوله: «وَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي قَالَهُ عَلِيٌّ ﵁ حَمَلَهُ عَلَيْهِ تَرْجِيحُ جَانِبِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِمَا رَأَى عِنْدَهُ مِنْ الْقَلَقِ وَالْغَمِّ بِسَبَبِ الْقَوْلِ الَّذِي قِيلَ، وَكَانَ ﷺ شَدِيدَ الْغَيْرَةِ، فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّهُ إِذَا فَارَقَهَا سَكَنَ مَا عِنْدَهُ مِنْ الْقَلَقِ بِسَبَبِهَا إِلَى أَنْ يَتَحَقَّقَ بَرَاءَتُهَا فَيُمْكِنُ رَجْعَتُهَا، وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ اِرْتِكَابُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ لِذَهَابِ أَشَدِّهِمَا.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ ﵀ في شرحه على صحيح مسلم: «رَأَى عَلِيٌّ ﵁ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَصْلَحَةُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنْ اِنْزِعَاجِهِ، فَبَذَلَ جَهْدَهُ فِي النَّصِيحَةِ لِإِرَادَةِ رَاحَةِ خَاطِرِهِ ﷺ».

[شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٠٨].

وَقَالَ الشَّيْخ أَبُو مُحَمَّد بْن أَبِي جَمْرَة: لَمْ يَجْزِمْ عَلِيٌّ ﵁ بِالْإِشَارَةِ بِفِرَاقِهَا لِأَنَّهُ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «**وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ**» فَفَوَّضَ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ إِلَى نَظَرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ أَرَدْتَ تَعْجِيلَ الرَّاحَةِ فَفَارِقْهَا، وَإِنْ أَرَدْتَ خِلَافَ ذَلِكَ فَابْحَثْ عَنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ إِلَى أَنْ تَطَّلِعَ عَلَى بَرَاءَتِهَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّق أَنَّ بَرِيرَةَ لَا تُخْبِرُهُ إِلَّا بِمَا عَلِمَتْهُ، وَهِيَ لَمْ تَعْلَم مِنْ عَائِشَةَ إِلَّا الْبَرَاءَةَ الْمَحْضَةَ».

[فتح الباري ١٠/ ٨٣]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٨-٦٩].

المطلب السادس

الدروس العسكرية

ـ أهمية تفقد المعسكر بعد رحيل الجند:

يقول د/ الحميدي: «ومن المواقف التي ينبغي الإشارة بها في هذا الخبر ما كان يقوم به صفوان بن المعطل السلمي ﵁ من التأخر وراء الجيش والقيام بالتقاط ما قد يسقط من المسلمين من متاع ثم إيصاله إلى أصحابه، وهذه مهمة فدائية؛ لأن انفراد رجل واحد عن الجيش قد يعرضه للمداهمة من الأعداء.

ولقد قدر الله ـ تعالى ـ أن يكون ما يستدركه هذه المرة أغلى من كل ما يملكه المسلمون ومن جميع كنوز الأرض، أو ليس الله تعالى قد أنقذ به عائلة الإسلام الأولى التي حفظت لهذه الأمة نصف العلم الديني، فكم هو الخير الذي قدمه هذه الفدائي النبيل لأمة الإسلام». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٩٤].

ويقول د/ أبو فارس: «يلاحظ القارئ الكريم أن الرسول ﷺ قد أبقى صفوان بن المعطل ﷺ وراء الجيش يتفقد المعسكر بعد الرحيل، فإن وجد متاعًا قد تُرك أو سلاحًا قد نُسي، التقطه وحفظه من الضياع، وإن وجد جريحًا أو ضالًّا أو ضعيفًا حمله وألحقه بالجيش، وهكذا فعل صفوان بن المعطل ﷺ لما أدرك عائشة ﷺ.

والجيوش الحديثة تجعل منها سرية تتفقد المعسكر بعد الرحيل حتى لا يبقى شيء من السلاح أو سر يستفيد منه العدو.

ورسولنا محمد ﷺ هو الرائد في هذا، وعلى العسكريين أن يدرسوا سيرته وأن يقتفوا أثره، ويستفيدوا من خططه في قتال عدوه». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٦٠].

المطلب السابع
الدروس الدعوية

١ ـ ابتلاء الدعاة إلى الله ﷻ:

ولقد أراد الله أن يختبر نبيه ﷺ بحديث الإفك ليظل قمة القمم في الصبر، ومثلًا أعلى للمؤمنين في الاحتساب، فلم يكن هناك لون من الابتلاء يصعب على النفس البشرية تحمُّله إلا والنبي ﷺ ذاقه وصبر عليه واحتسب أجره عند الله.

لقد فقد أحب الناس إليه فصبر، وأوذي في جسده فصبر، وأوذي في عرضه فصبر واحتسب، كان الإفك محنة فصار منحة، كان بلاء فصار وسامًا، ونزلت تبرئه الزوجة العفيفة في قرآن يتلى ويتعبد بتلاوته أبد الدهر، فهل هناك تكريم لعائشة أكثر من هذا؟ ولقد صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾[النور].

يقول الشيخ عرجون: «وقد لبث ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية صابرًا صبرًا لم يُعرف في تاريخ النوازل والبلايا لأحد من قبله، ولا لأحد من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد قدومهم المدينة بسبع وثلاثين ليلة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، تحدث به أهل النفاق ومرضى القلوب، ولاكته ألسنتهم بين أشداقهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

وكذلك كان حال آل أبي بكر، فإنهم منذ بلغهم (الإفك) وما تحدث به المنافقون ومرضى القلوب وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون ولا ما يفعلون، ولكنهم

استسلموا لقضاء الله منتظرين حكمه ـ وهم يتجرعون مرارة الصبر في حيرة وذهول ـ بكشف هذه الغمة التي أحاطت أثقالها بأكنافهم، وكان أمر رسول الله ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم.

وصف عائشة رضي الله عنها لحالها وحال أبويها في أحرج لحظات البلاء:

تقول عائشة رضي الله عنها تصف حال أبويها وحال أهل بيتها، وما بلغت منهم المحنة من شدة عصفت بكيانهم، وزلزلت أقدامهم، وأذابت فيهم عناصر الحركة النفسية والفكرية، فسكتوا سكوت المطلع إلى الغيب، يتسمع حكمه على حياته ـ: ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام.

ثم تقول عائشة رضي الله عنها تصف حالها من الثقة واليقين الإيماني ببراءتها، وتصف حال أبويها وشدة ما نزل بهما حين نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وتغشاه ما كان يتغشاه: «فَأَمَّا أَنَا حِينَ رَأَيْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ، فَوَالله مَا فَزِعْتُ وَلَا بَالَيْتُ، قَدْ عَرَفْت أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ ﷻ غَيْرُ ظَالِمِي، وَأَمَّا أَبَوَايَ فَوَالَّذِي نَفْسُ عَائِشَةَ بِيَدِهِ مَا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى ظَنَنْتُ لَتَخْرُجَنَّ أَنَفْسُهُمَا، فَرَقًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ الله تَحْقِيقُ مَا قَالَ النَّاسُ». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٢٨-٢٢٩].

٢ ـ ضوابط الوقاية من تلفيقات أعداء الدعوة:

يقول د/ زيدان: «الضابط الأول: الظن الحسن فيما يسمعه عن إخوانه المؤمنين الدعاة، وأن يتذكر قوله تعالى في تحذيره للمؤمنين: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور].

الضابط الثاني: لا يكفي الظن الحسن في القلب بالنسبة لما يسمعه عن إخوانه الدعاة من أقوال السوء، وإنما عليه أن ينفيه بلسانه ويصرح بهذا النفي؛ لأن المنكر الظاهر يُدفع بشيء ظاهر.

الضابط الثالث: ولا يكفي الظن الحسن والتصريح بنفي وإنكار مقالة السوء، بل على الداعي أن لا يسمح بتسرب شيء إلى نفسه مما يخالف الظن الحسن، وإذا حصل شيء من ذلك في نفسه فلا يجوز أن يتكلم بهذا، بل يردد بلسانه حتى يسمع نفسه وغيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور].

الضابط الرابع: أن يبعد الداعي عن نفسه أي ميل أو محبة أو رغبة في إشاعة الفاحشة، ونهش الأعراض، واتهام الغافلين المؤمنين، يعرف من نفسه حصول شيء مما ذكرنا فيها، إذا شعر بلذة في سماع أقوال السوء، أو رغبة في ترديدها، أو في قوله سمعت كذا وكذا من مقالة السوء، وليتذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور]». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣١٩].

٣ ـ على الدعاة أن يروا في تلفيقات الأعداء خيرًا لهم:

يقول د/ زيدان: «ولا يجوز أن تُثَبِّط تلفيقاتُ أعداء الدعوة همم الدعاة، ولا تضعف عزائمهم، وأن لا يحدقوا وينظروا فقط إلى ما في هذه التلفيقات من أذى لهم وضرر عليهم، بل عليهم أن يبصروا من خلالها جانب الخير والمصلحة لهم المتمثلة بالأجر العميم، وبنصرة الله لهم وبتوعد أعداء الدعوة، وليتذكر الدعاة قول الله لرسوله وللمؤمنين الذين تأذوا بحديث الإفك: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النور: ١١]». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣١٩].

٤ ـ المؤمن قد يقع في الخطيئة:

يقول د/ زيدان: «وعلى الدعاة أن يعلموا أن المؤمن قد يقع في الخطيئة، كما وقع بعض المؤمنين في جريمة الإفك المتعلقة بأم المؤمنين عائشة ﵂، مع علو مقامها ومنزلتها من رسول الله ﷺ، فليحذر الدعاة من الوقوع بمثل ما وقع فيه أصحاب الإفك، كما لو صدقوا أهل النفاق في طعنهم بعرض أو بسيرة أمير جماعتهم متعلقين بالشبهات التي يثيرها خصوم الدعوة كاتهام أميرهم بالعمالة للأجنبي؛ لكونه رؤي يتكلم مع بعض أعداء الدعوة أو يختلي به، أو يزوره في سفارة بلاده، وما إلى ذلك».

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣١٨].

٥ ـ الحذر من المنافقين:

يقول د/ زيدان: «على الدعاة وجماعتهم المسلمة الحذر من المنافقين، الذين يُعرفون من خلال صفاتهم وأقوالهم؛ لما فيها من تشكيك بوعد الله أو تثبيط همم المؤمنين، أو غير ذلك.

قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد ﷺ: ٣٠] أي في فحواه ومعناه وإن لم يصرح به. [تفسير القرطبي ١٦/ ٢٥٢].

أي يُعرف المنافقون فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم؛ لأن المتكلم يعرف من أي الحزبين هو: أمن حزب المؤمنين أم من حزب المنافقين، يعرف ذلك منه بمعاني كلامه وفحواه، كما قال عثمان بن عفان ﵁: **ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه.** [تفسير ابن كثير ٤/ ١٨٠].

ووجه الحذر منهم التفطن لما يريده المنافق من إشاعة الفُرقة والتهم بين المؤمنين، وإيقاع الشر فيما بينهم، واتهام الأخيار والقادة فيهم، وتأثر بعض المؤمنين بمقالة المنافق، ونشرها ونقلها وإشاعتها كما حصل في حديث الإفك.

وليعلم الدعاة وجماعتهم أن تجمعهم الإيماني لا يجعلهم في نجوة وصيانة من التأثر بمقالات أهل النفاق وقيام بعضهم بنقلها، إن كانوا ليسوا منافقين، كما فعل بعض المؤمنين الذين تأثروا بمقالة أهل

الإفك، ففي مجتمع الصحابة الكرام وهو المجتمع الإيماني وجد فيه من يسمع للمنافقين ويتأثر بأقوالهم، قال تعالى عن المنافقين: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة]، وقوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ أي فيكم أيها المؤمنون نمامون يسمعون حديثكم، فينقلونه إليهم، أو فيكم قوم يسمعون المنافقين ويطيعونهم. [تفسير الزمخشري ٢/ ٢٧٧].

فعلى الدعاة الكشف عن مكائد المنافقين، وتحذير إخوانهم وأنصارهم من هذه المكائد». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣١٧-٣١٨].

٦ ـ الظن الحسن بالمؤمنين وخاصة الدعاة:

يقول د/ زيدان: «من ضوابط الأخوة الإيمانية الظن الحسن فيما بين المؤمنين، فلا يجوز حمل ما يصدر عن المؤمن محملًا سيئًا مع إمكان حمله على المحمل الحسن، وإذا كان هذا الضابط مطلوبًا شرعيًّا بين عموم المؤمنين، فهو مطلوب طلبًا آكد وأشد بين الدعاة أعضاء الجماعة المسلمة، فلا يجوز تأويل تصرفات الداعي من قبل إخوانه الدعاة تأويلًا سيئًا لا يليق به، ولا يتفق وكونه داعية إلى الإسلام.

إن خصوم الدعوة يسعون إلى إشاعة سوء الظن فيما بين أعضاء الجماعة المسلمة من الدعاة وأنصارهم بما يلفقونه من اتهامات، ويزعمونه من أحداث ينسبونها إلى هذا أو ذاك من الدعاة.

فعلى الدعاة أن يحصنوا أنفسهم ضد هذا الأسلوب بالضوابط التي أشار إليها القرآن في حديثه عن أهل الإفك». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣١٨].

٧ ـ المؤمن يري ذنوبه كالجبال:

يقول د/ زيدان: «وعلى الدعاة أن ينظروا إلى ذنوبهم مهما صغرت كأنها جبال توشك أن تقع عليهم، وأن لا يستهينوا ولا يستصغروا أي ذنب، وأن يعلموا بأن الأقوال كباقي الذنوب، وأن خطورتها عظيمة جدًّا لسهولة النطق بها، فليحذر الدعاة من زلات اللسان ومن النطق بما يسخط الله، أو يؤذي المؤمنين والمؤمنات، فرب كلمة لا يلقي قائلها لها بالًا تهوي به في جهنم، وهل أهلك أهل الإفك إلا كلامهم الباطل واتهامهم الآثم لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وليتذكر الدعاة خطر الكلمة تقال في سخط الله، حتى لا يتكلموا إلا بخير. فقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ**». [البخاري في الرقاق (٦٤٧٧)، ومسلم في الزهد والرقائق(٢٩٨٨)].

وقوله: «**مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا**»: أي ما يتفكر هل هي خير أو شر.

وروى هذا الحديث الترمذي وابن ماجه إلا أنهما قالا في روايتهما: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لاَ يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِى بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ**». [الترمذي في الزهد (٢٣١٤)، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح]».

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣٢٠-٣٢١].

٨ ـ منهج مواجهة الشائعات:

يقول الشيخ المدري: «قد رسم القرآن الكريم لنا منهجًا في مواجهة الشائعات، وما أكثرها في زماننا هذا!!:

فأولى الخطوات: عرض الأمر على القلب، واستفتاء الضمير، فالمؤمن لا ينبغي أن يكون أذنًا يمر الكلام عليه بلا ترو ولا تفهم، إنما بنقد واعتبار، فيتوقف حتى يتبين ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات].

قال تعالى مبينًا للمؤمنين أهمية هذه الخطوة في قصة الإفك: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢].

نعم، كان هذا هو الأولى: أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في هذه الحمأة، وكذلك فعل أبو أيوب الأنصاري ﷺ حينما قالت له امرأته أم أيوب: **أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ﷺ؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك.**

وهكذا إذا سمع المسلم شائعة أو تهمة ملفقة رمي بها أحد عباد الله الصالحين أو الدعاة المخلصين؛ عليه أن يظن بأخيه خيرًا، ويعلم أبعاد حرب الحق والباطل، وليعلم أن رسول الله ﷺ قبله رُمي في عرضه، لكن الله يدافع عن الذين آمنوا، وليعلم أن هذا هو دأب المنافقين والمأجورين والحاقدين مع عباد الله المؤمنين، الذين يدعون إلى صراط الله المستقيم، وأن هذا هو دأب الجبناء الذين يعملون من خلف الأستار بتلفيق أخس التهم الباطلة، ولكن إن ربك لبالمرصاد.

والخطوة الثانية من منهج مقابلة الشائعات: طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي:

قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور]، فعند طلب البينة تتضح الحقيقة، ولن يجد المبطل الأفاك بينة.

ويبين سبحانه وتعالى خطورة الغفلة عن هاتين الخطوتين: قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النور].

فلقد احتسبها الله للجماعة المسلمة درسًا قاسيًا، فأدركهم بفضله ورحمته، ولم يمسهم بعقابه أو عذابه». [غزوة بني المصطلق للمدري ٤٦-٤٨].

٩ ـ إشاعة العفو والصفح بين الدعاة:

يقول د/ زيدان: «وعلى الدعاة وجميع أعضاء الجماعة المسلمة إشاعة حب العفو والصفح فيما بينهم، فيصفح بعضهم عن بعض إذا صدرت منه الإساءة أو التقصير، فإن الشأن بالأخ الصفح والعفو عن أخيه، وليتذكروا بأن الجزاء من جنس العمل، فإذا عفوا عن المسيء إليهم، جازاهم الله بالعفو عن زلاتهم وذنوبهم، وليتذكروا قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[النور: ٢٢]».

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣٢٠].

١٠ ـ تعلم الدعاة تنوع أساليب الإقناع:

يقول د/ رشوان: «تناولت آيات حديث الإفك ـ من الآية ١١ إلى الآية ٢٦ من سورة النور ـ عدة أساليب إقناعية لإثبات البراءة، ومن أهم هذه الأساليب: أسلوب التكرار بالمماثلة اللفظية، وأسلوب القاعدة القرآنية: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة]، وأسلوب الإثبات الصريح بآيات بينات، إلى غير ذلك من أساليب، والتي نود أن نوضح مدى تأثيرها كأساليب إقناعية؛ لحمل المتلقي على الاقتناع بها؛ لإثبات البراءة، على النحو التالي:

١ ـ أسلوب التكرار بالمماثلة اللفظية: تضمنت الآية ٢٦ من سورة النور، في قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ تضمنت تكرارًا بمماثلة لفظية، وهي ما تُعرف بالمشاكلة أو المشابهة اللفظية عند أهل البديع، حيث يُذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته».

[المعجم الوسيط ١/ ٤٩١].

وجاء التكرار بهذه المماثلة اللفظية في هذه الآية بأربعة طرق، وهي:

أ ـ ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾.

ب ـ ﴿وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾.

ج ـ ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾.

د ـ ﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

والملاحظ أن هذا التكرار، بتلك المماثلة اللفظية، يمثل تغايرًا في شكل الألفاظ، وإثبات المعاني بطرق مختلفة، بالسلب مرة وبالإيجاب تارة أخرى، مما أعطى المعنى الإجمالي، بصور متباينة في النظم، ومن ثَمَّ برز المعنى، بشكل أكثر جلاءً وبيانًا. **[روائع الإعجاز في القصص القرآني ـ د/ محمود السيد حسن ـ المكتب الجامعي الحديث ـ الإسكندرية ١٩٨٢م، ص ١٤٢].**

إن المتأمل في هذه التكرارات، في هذه الآية، يجد أنها جاءت كوسيلة إقناعية مؤثرة؛ لتحقيق عدة أهداف، منها:

أ ـ جذب الانتباه، ولفت النظر إلى خطورة الموضوع الذي تتناوله هذه الآية، وحمل المرء على اليقظة وتركيز الانتباه، حتى يمكن استيعاب المعاني بشكل أكبر، وفهم المراد بطريقة أيسر.

ب ـ تأكيد معنى الدقة والصدق، عند عرض المعلومات القرآنية في هذه الآية.

ج ـ الاستجابة لما تتطلع إليه النفس من انجذاب وتشويق، وذلك من خلال التنقل في الألفاظ المتجددة والاستلذاذ بها. [روائع الإعجاز في القصص القرآني ـ د/ محمود السيد حسن ص ١٤٢].

د ـ المساعدة على ترسيخ المعلومات القرآنية وتثبيتها، وتسهيل حفظها وتذكرها، إذ أن من بين العوامل التي تساعد على حفظ القرآن، تكرار قراءته، وخاصة إذا كثرت المماثلات اللفظية، كما في هذه الآية التي نحن بصددها.

هـ ـ أن التكرار في هذه الآية يعمل على إبراز جانب مهم في كل مرة، وذلك بتركيز الأضواء على كل جانب، وعندما تتجمع هذه الجزئيات الموزعة، فإنها تساعد على استعراض الموقف بصورة متكاملة واضحة.

و ـ عرض المعنى المطلوب وتأكيده بمعنى عكسي له، بمفهوم المخالفة، وذلك من خلال التكرار والتكرار العكسي.

وفي ضوء ما تقدم، يمكن القول بأن التكرار بالمماثلة اللفظية سالفة الذكر، بأهدافه المختلفة، يُعد من أعظم الوسائل الإقناعية المؤثرة في المتلقين، وإثبات البراءة أمامهم بجلاء ووضوح.

٢ ـ أسلوب قاعدة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[البقرة]: إن الثقة والاطمئنان والإيمان الكامل، بسلامة الموقف، وبراءة المدعى عليه، تجعل من السهولة بمكان اتباع سياسة التحدي وتعجيز مروِّج الشائعة، وذلك بأن يطلب منه تقديم الأدلة والبراهين، إن كان من الصادقين، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[البقرة].

هذا ويلاحظ أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ ولم يقل (إذا كنتم صادقين)، حيث إن (إذا) للتوقع، و(إن) للشك أو للاحتمال أو للندرة أو للاستحالة... إلخ، والمعنى أن يكون هناك استحالة لصدقهم.

وهذه القاعدة القرآنية، من أقوى أساليب الإقناع؛ لاعتمادها على أدلة قاطعة وحجج دامغة، يصعب أو يستحيل إنكارها؛ ولذلك وجَّه القرآن ـ بأسلوبه المعجز ـ تطبيق هذه القاعدة، فطلب من مروجي شائعة الإفك، تقديم الدليل على صدقهم، وذلك بأن يقوموا بتقديم شهادة أربعة، على صدق ادعائهم، فإذا عجزوا عن الوفاء بهذا المطلب، فقد أثبتوا على أنفسهم الكذب البين والفرية الباطلة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾[النور].

والملاحظ أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ قال: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾، ولم يقل: (فإن لم يأتوا بالشهداء)؛ لأن (إذ) للتوقع، و(إن) للشك أو للاحتمال أو للندرة أو للاستحالة... إلخ، كما سبق أن قدمنا، وبذلك يكون المعنى التوقع بعدم إيتائهم بالشهداء، والتوقع أيضًا بكذبهم وافترائهم تبعًا لذلك.

وعلى الرغم من أن هذه الآية، قد حددت الشهداء من حيث عددهم، ولم تحدد أو تقيد صفاتهم، كأن يكونوا ممن يرضى عنه المدعى عليه، أو من ذوي العدل، كما جاء في مواضع أخرى من القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[الطلاق: ٢]، إلى غير ذلك من آيات؛ وذلك لتوبيخ هؤلاء الأفاكين والتهكم عليهم والسخرية منهم، والاستهزاء بهم، وتحديهم... إلخ. [تفسير سورة النور ـ لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ـ مراجعة د/ عبد العلي عبد الحميد حامد ـ الدار السلفية ـ بومباي ـ الهند ١٩٨٧م، ص ١١٣].

وهنا صُدم هؤلاء المجرمون، وأُصيبوا بخيبة أمل؛ لعجزهم عن تحقيق هذا المطلب، وفضحهم على الملأ، بأنهم مختلقون كاذبون، بأعلى مستوى من الكذب والافتراء.

٣ ـ أسلوب الإثبات الصريح بآيات بينات: حددت الآية رقم ١١ من سورة النور، مروجي شائعة الإفك تحديدًا جليًّا قاطعًا، وفضحت عظم كذبهم وجرم افترائهم، بدليل أنها حددت الشائعة بكلمة إفك، وهو أشد حالات الكذب افتراءً وفحشًا.

ومن ناحية أخرى، تضمنت الآيات من رقم ١٢ إلى رقم ٢٥ من هذه السورة، تضمنت تحديدًا أكثر، لما يستحقه مروجي الشائعة، من تأنيب وتوبيخ وزجر وتوعد وإنذار؛ لعدم العودة إلى مثل هذه الفعلة الشنعاء، إلى غير ذلك من تحديدات صريحة لجُرم هؤلاء الأفاكين.

فإذا أضفنا إلى ما تقدم ما تضمنته الآية رقم ٢٦ من هذه السورة، من نص صريح على هذه البراءة، في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، لَتبين أن هذه الآيات جميعها تؤكد بعد هذه التحديدات أنه لا وجود أصلًا لموضوع شائعة، تثبت بطلانها وزيفها، ومن ثم يتفجر نور الحق ببراءة عائشة أم المؤمنين ﵂، وصفوان بن المعطل السلمي ﵁ من هذه التهمة، براءة تامة قاطعة، كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب ﵇، في قصة يوسف ﵇، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]». [حديث الإفك من المنظور الإعلامي لرشوان ١٠٣-١٠٧].

١١ ـ حديث الإفك وخطورته على الصف المسلم:

يقول د/ الغضبان: «اخترت هذا العنوان (حديث الإفك) على طبيعته، لأَصِلَ بهذا المصطلح الخاص إلى النص العام الذي لا بد أن يشعر به أبناء الصف المسلم وخطورة أخذهم بالإشاعة دون تثبت وكيف أن الإشاعة كفيلة بتحطيم هذا الصف كله.

إنه وإن تجسد باتهام الصديقة بنت الصديق عائشة ﵂، لكنه صورة قد تتكرر في كل جيل وتضع النَّيْل من القيادة هدفًا رئيسًا لابد من تحطيمه، وحين تعجز القوة المادية عن النَّيْل من القيادة فليس أمام العدو إلا الحرب المعنوية على هذه القيادة وتحطيمها من خلال هذه الحرب؛ ولذلك لن نتناول حديث الإفك كحدث تاريخي بتفصيلاته ودروسه، ولكننا سنتناوله من خلال حرب الإشاعة التي يبثها العدو المنبث في الصف ضد القيادة.

وأهم ما في هذا الحدث هو أن مصدر الفرية ـ على ما يبدو ـ هم المنافقون تحت راية زعيمهم عبد الله ابن أُبي، وحين يتحصن الصف من الفِرية، وتبقى في صفوف المنافقين فلا خطر منهم ولا هَمَّ، لكن عندما تنتقل إلى داخل الصف المسلم فتسري فيه سريان النار في الهشيم عندئذ يبدو خطرهم الكبير.

والنص القرآني حين تحدث عن هذه الحادثة، كان يخاطب الصف المسلم أكثر مما يخاطب صف المنافقين، ويحمل على المؤمنين الصادقين الذين تأثروا بهذه الفرية، واستجابوا للحديث في الظنة دون بينة، والنقاط المحددة التي نعرض لها في هذا الحديث المؤتفك هي ما يلي:

أولاً: البعد عن مظان التهمة واجب أساسي على الصف المسلم، وعليه أن يعلم ـ وخاصة القيادة ـ أنه هدف لأنظار العدو والصديق، فيتجنب ما استطاع البعد عن موطن الريبة.

ثانيًا: عدم الأخذ بالإشاعة كما يقول القرآن الكريم: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور].

وأي خبر غير موثق بالنسبة للفرد المسلم هو مرفوض عنده، وليعلم هذا الأخ أن رواية الإشاعة، وتناقل الخبر غير الموثق تحيله إلى أخ كاذب. وهذا حكم القرآن في أمثال هؤلاء، هم الكاذبون عند الله، ولو لم يفتر الكذب، لو كان نقله صدقًا محصنًا عمن سمع منه فهو عند الله تعالى من الكاذبين.

ثالثًا: ليبق الميزان الحساس في الحكم على الإشاعة هو الميزان الذاتي، فلابد من ثقة الأخ بإخوانه ثقته بنفسه، وقد أقر القرآن الكريم هذا الميزان وأثنى عليه وذلك بمناسبة الحديث الذي جرى بين أبي أيوب الأنصاري وزوجه أم أيوب ﵄ إذ قالت لزوجها: «**يَا أَبَا أَيُّوبَ! أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ؟ قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ الْكَذِبُ، أَكُنْتِ يَا أُمَّ أَيُّوبَ فَاعِلَةٌ؟ قَالَتْ: لَا وَاللهِ، مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَهُ، قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللهِ خَيْرٌ مِنْكِ**».

ونتمنى لكل أخ وهو يثير الإشاعة بحق أخيه أو قيادته أن يحسب على أقل تقدير أن أخاه أو مسؤوله ليس أقل حرصًا على دينه منه، وليس أقل دينًا وورعًا منه، ولو نفذ هذا الميزان الذاتي، لانهارت الإشاعة وانهار الإفك من جذوره.

رابعًا: أن لا يتدخل الهوى إطلاقًا في قضية النقل للإشاعة والمساهمة فيها وصورتان متنافرتان لاتباع الهوى في الإفك، وللتبرؤ منه، والصورتان هما لأختين مسلمتين شقيقتين الأولى: هي زينب بنت جحش ﵂، والثانية: لأختها حمنة بنت جحش، فقد أورد المقريزي عن زينب هذا الحوار بينها وبين رسول الله ﷺ: قالت: (**حاشى سمعي وبصري، ما علمت عليها إلا خيرًا، والله ما أكلمها وإني لمهاجرتها وما كنت أقول إلا الحق**). [إمتاع الأسماع للمقريزي ١/ ٢٠٨].

وأن تستطيع ضُرَّة أن تكتم هواها فلا تمضي في الإشاعة يدل على المستوى العظيم الذي بلغته هذه المرأة المسلمة والأفق العالي الذي ارتقت عليه، وهذا ما دعا عائشة ﵂ أن تبرئ ساحة زينب ﵂ من ولوغها في هذه الفرية.

تقول ﵂: (**ما كان أحد يساميني عند رسول الله ﷺ إلا زينب بنت جحش**)، فقد وضعتها في موقعها الصحيح من طبيعة المنافسة مع عائشة ﵂، لكنها مع ذلك لم تجد حرجًا من الثناء عليها في هذا الموقف فقالت: (**أما زينب فقد عصمها الله بدينها فلم تقل شيئًا**).

أما الموقف الثاني، فهو موقف أختها حمنة، التي انطلقت في الإشاعة تنقلها من بيت إلى بيت، ولا شيء يقف في وجهها، وذلك ثأرًا لأختها زينب.

تقول عائشة ﵂: (**أما أختها حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادني لأختها فهلكت**).

ولا نتمالك من الإعجاب العظيم بعائشة ﵂، إذ استطاعت أن تفصل بين الموقفين للأختين الشقيقتين، ولم تُحَمِّل زينب شيئًا من وزر أختها حمنة.

خامسًا: موقف المفترَى عليه، هو أثقل الأدوار وأضخمها في حديث الإفك.

والمنهج الذي يجب أن يسود في هذا الصدد هو أن لا يقابل الافتراء بافتراء آخر ولا تقابل الإشاعة المؤتفكة بإشاعة أخرى، وأن يتمالك الأخ المفترَى عليه فلا يطلق لسانه في أعراض الآخرين ولو اعتدي عليه حتى تتم براءته وتبرئته، هو موقف أصيل ندعو إليه هذا الأخ في هذا المجال، ونلحظ موطن القدوة من العناصر الثلاثة الذين نيل من عرضهم في حديث الإفك.

أولهم: محمد رسول الله ﷺ، وهو سيد الأمة والبشرية، وهو الحاكم والقائد، وبيده السلطة، وبإشارة واحدة منه يمكنه أن ينهي حياة الوالغين في عرضة، ومع ذلك لم يملك في هذا الأمر بعد أن استشار كبار أصحابه إلا أن يخطب في المسلمين قائلًا على المنبر بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «**أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمتُ منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي**».

وعندما وقعت الأزمة بين الفريقين الأوس والخزرج لم يكن ليملك ﷺ إلا أن يكون حكمًا بينهما رغم أن أحد الفريقين يدافع عن الوالغين في عرض عائشة ﵂ والآخر يهاجمهم، ومع ذلك فقد أرضى الفريقين ولم يتحيز لأحدهما لأنه لا يملك البينة ليرد بها على الفريق المتهم، وحتى عندما تجاوز صفوان ﵁ في ثورته لنفسه وضرب حسان بن ثابت ﵁ على اتهامه لم يسنده رسول الله ﷺ من الخلف ويشجعه على تجاوزه قبل صدور البينة مع أنه يبرئ أحب الناس إليه عائشة ﵂، وقد حضر حسان وصفوان عند رسول الله ﷺ ولنستمع إلى تلك المحاكمة الهادئة للجنديين المتجاوزين!

قَالَ ابْنُ المعَطَّلِ: يَا رَسُولَ الله! آذَانِي وَهَجَانِي، فَاحْتَمَلَنِي الْغَضَبُ فَضَرَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِحَسَّانَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ، أَتَشَوَّهْتَ عَلَى قَوْمِي أَنْ هَدَاهُمْ اللهُ لِلْإِسْلَامِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَحْسِنْ يَا حَسَّانُ فِي الَّذِي أَصَابَكَ**»، قَالَ: هِيَ لَكَ يَا رَسُولَ الله.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْطَاهُ عِوَضًا مِنْهَا بَيْرُحَاءَ، وَهِيَ قَصْرُ بَنِي حُدَيْلَةَ الْيَوْمَ بِالمدِينَةِ وَكَانَتْ مَالًا لِأَبِي طَلْحَةَ بْنِ سَهْلٍ تَصَدَّقَ بِهَا عَلَى آلِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَعْطَاهَا رَسُولُ الله ﷺ حَسَّانَ فِي ضَرْبَتِهِ وَأَعْطَاهُ سِيرِينَ أَمَةً قِبْطِيَّةً، فَوَلَدَتْ له عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَسَّانَ.

وهكذا كلفت ضربة صفوان لحسان ﵁ أرضًا وجارية وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت ﵁ بعد عفوه عن صفوان بن المعطل ﵁، وكان هذا العطاء لمن ينشد الشعر في اتهام زوجته ويمضي في الإشاعة دون توقف.

وثانيهم: هو أبو بكر ﵁ وزوجه أم رومان وقد نزل بهم من البلاء ما لم ينزل بمسلم وأقصى ما قالته أم عائشة التي تعرض عرضها للثلم والإهانة: **أي بنية خفضي عليك الشأن، فو الله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.**

ولم يتمالك أبو بكر ﵁ أن يقول: (**ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر، والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية حيث لا نعبد الله، فيقال لنا في الإسلام!**).

وثالثهم: عائشة ﵂ التي لم تنته عن البكاء حتى ظنت أن البكاء سيصدع كبدها.

وحين ووجهت بالأمر من رسول الله ﷺ يسألها عن الحديث فقالت: (**إني والله قد علمت أنكم سمعتم بهذا الحديث، فوقع في أنفسكم فصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر يعلم الله أني منه بريئة لتصدقنني، وإني والله ما أجد لي مثلًا إلا أبا يوسف إذ يقول: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**).

إنها مواقف لا يحمل التاريخ لها مثيلًا من أطهر أهل الأرض يوصمون بشرفهم وعرضهم ومع ذلك فلم يخرج أحد منهم عن طوره، ولا أطلق لسانه في عِرض أحد، وضبط كل واحد منهم أعصابه، وأما

الذي خرج عن طوره فهو صفوان بن المعطل ﷺ، وضرب حسان ﷺ بالسيف وكاد الأمر أن يستفحل لولا أن عالجه رسول الله ﷺ.

إنه أدب الإسلام العظيم مع الذين يرددون الإشاعة ويسيرون في الإفك قبل أن تعرف أنها إفك أو إشاعة.

سادسًا: والموقف الأخير الذي نستخلصه من حديث الإفك هو عقوبة المغترين اللاغطين المثيرين للفتنة، فلا يكفي أن تثبت براءة المتهم، ولا يكفي أن تدفع القيادة عنها قالة السوء وانتهى الأمر.

بل لابد في الصف المسلم من العقوبة الصارمة مع من يثير الإشاعة ويسعى في نشرها بعد التثبت منها، وما تعانيه الحركة الإسلامية اليوم هو إهمال ملاحقة مثير الإشاعة وناقل الإفك، وبذلك لا تنتهي الجماعة من فتنة إلا وتقع في أخرى، ويكفي أن نعلم أن حُكم الإسلام كان في هؤلاء الثلاثة الذين ساروا في الإفك، مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، أن أقيم عليهم حد القذف ثمانين جلدة، وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أن هذا الحد طُبق فيما بعد ولم ينفذ عليهم لأنهم خاضوا في التهمة قبل نزول الحدود.

والحديث عن هذه السمة يأتي في هذه المرحلة لأن تاريخ الدعوة لم يشهد مثيلًا لها من قبل وفي الصف المسلم بالذات، وطبيعة المرحلة إذن هي أن الإشاعة تسري حين يضعف البناء الداخلي ويستجيب لها، لكن عندما تنشغل الأمة بالجهاد والمواجهة، فقلَّما تستطيع الإشاعة أن تفعل فعلها في النفوس».

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/ ٧-١١].

١٢ ـ تشويه صورة رسول الله ﷺ والدرس الدائم:

يقول م/ أبو راس: «عفا النبي ﷺ عن عبد الله بن أُبي في مقولته الآثمة التي تنصل منها وأثبتها القرآن الكريم عليه، إلا أن هذا العفو لم يؤثر في النفوس المريضة، ولم يزدها الإحسان إلا جحودًا ونكرانًا، فعبد الله بن أُبي اختفى كالعقرب ثم شرع يلسع الغافلين، وانحط غاية الانحطاط وهو يتهجم على الأعراض المصونة بما نسجه من مفتريات يندى لها الجبين، قاصدًا بذلك أن يدمر على الرسول ﷺ بيته، وأن يسقط مكانته، وأن يدفع المجتمع المسلم إلى حضيض الهاوية وهو يرى رمزه يُطعن في أعز ما عنده.

لقد استباح عبد الله بن أُبي لنفسه أن يرمي بالفحشاء سيدة لم تتجاوز مرحلة الطفولة البريئة بعد، سيدة تربت في حجر الصديق ﷺ، وأُعدت لصحبة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة.

لقد فشل المنافقون فشلًا ذريعًا في تفريق الصف المسلم، وذلك بما حاولوا إثارته بين المهاجرين والأنصار، فحاولوا تشويه صورة رسول الله ﷺ في عيون العامة من الناس الذين تلقفوا الخبر دون تريث أو تفكير، ذلك أن اهتزاز صورة القائد اهتزاز للدعوة التي يدعو إليها.

وهذه الوسائل الخبيثة لم تتوقف حتى يومنا هذا، فأعداء الله، وأعداء الدعوة إلى الله ﷻ أخزى وأحقر من أن يحاربوا الإسلام وتعاليم الإسلام في وضح النهار هكذا وجهًا لوجه، وهم علاوة على ذلك لا يستطيعون مجابهة حقائق القرآن الدامغة بأباطيل وترهات لا يصدقونها هم أنفسهم فضلًا عن القدرة على إقناع الآخرين بها!

لذا فهم يعمدون دائمًا وأبدًا إلى تشويه صورة القائمين على الدعوة إلى الله ﷻ، علهم بذلك يعزلون عامة المسلمين عنهم ويحيدوهم ـ على أقل تقدير ـ إن لم يستطيعوا جلبهم إليهم.

وشعوبنا الإسلامية للأسف الشديد ليست شعوبًا (وثائقية)، تتابع الخبر ومصادر الخبر لتقف على الحقيقة، ولكنها تسمع أو تقرأ بالخط العريض في صحيفة من الصحف أن فلانًا من الدعاة عميل لأميركا، أو عميل لروسيا! فلا تطالب الكاتب إثبات ما يقوله بالحجة والدليل الواضح، ولكنها تصدق هذا فقط لأنه كُتب في الصحافة! ولا تتوقف عند التصديق ولكنها تطير في الخبر لتنقله إلى حيث تستطيع!

إن على شعوبنا الإسلامية أن تعلم حقيقة الصراع بين الحق والباطل، هذا الصراع الذي لن ينتهي ما دامت السماوات والأرض، وعليها أن تعلم أنها ـ أي الشعوب الإسلامية ـ في ساحة المعركة، ففي الحين الذي يحاول الدعاة إلى الله ﷻ النهوض بأممهم وشعوبهم؛ ليكونوا على مستوى الإسلام وحاجات الإسلام، وعلى مستوى العصر وحاجات العصر، وفي الحين الذي يحاول فيه الدعاة جمع المسلمين على الإسلام وتثقيفهم به، وتربيتهم عليه أفرادًا وجماعة، وتأهيلهم لحمله، وتنظيم جهودهم في العمل له والجهاد من أجله، في هذا الحين يحاول الآخرون لفت أنظار الشعوب عن الحقيقة الدامغة وعن الطريق المستقيم المستقل المتميز الذي يوصل إلى خيري الدنيا والآخرة، وذلك عن طريق ما يطلقونه من «بالونات ساخنة مضللة» وتُهَمٍ عارية عن الصحة في أوساط الشعوب الإسلامية.

فهل تكون شعوبنا على المستوى المطلوب منها؟! وهل يترفع الدعاة عن الشبهات التي سيحاول الاعداء استغلالها وتضخيمها لا للنيل من أشخاصهم فقط ولكن أيضًا للنيل من الإسلام والدعوة إلى الإسلام؟!». [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٣٣، ٢٣٧-٢٣٨].

١٣ ـ خطورة إشاعة الفواحش والمنكرات الإعلامية:

يقول د/ رشوان: «يجد بعض الناس متعة في إشاعة الفواحش، ولذة في نشر الفضائح والمثيرات، وإذا كان هؤلاء الناس يتورطون في ممارسة هذا اللون من القبائح، فإن بعض وسائل الإعلام يتورط في نشر الفضائح، وإثارة الفتن، وغيرها من المثيرات، التي تحرك الغرائز، وتثير الشهوات.

وهذه القبائح، وتلك المثيرات، من المنكرات، التي ينكرها الشرع، وتُغضب الله ﷻ، وتنفر منها النفوس الصحيحة، إلى غير ذلك من سلبيات.

صور من المنكرات الإعلامية: ونظرًا لتعدد وكثرة ما تنشره وتبثه وسائل الإعلام من منكرات ومثيرات؛ لذلك رأينا أن نعطي نماذج، على سبيل المثال، منها ما يتعلق بإفساد الجماهير، ومنها ما يتعلق بتضليلهم، وأخرى تهتم بتجهيلهم، ورابعة تتعلق بإفشاء الفضائح والأسرار، إلى غير ذلك من صور ونماذج، والتي نقدمها على النحو التالي:

١ ـ **إفساد الجماهير**: تتورط بعض وسائل الإعلام في تحريك الشهوات وإثارة الغرائز الجنسية، من خلال ما تنشره من أخبار الجنس، وحوادث الاغتصاب، ونشر الصور الفاضحة، والحوادث المثيرة، مثل عرض تفاصيل شبكات الدعارة... إلخ.

كما تفسد أخلاق الجماهير الشابة، من خلال ما تنشره من إعلانات عن أفلام الجنس والمغامرات العاطفية، وما تستغله من نجوم إعلانية وفتيات الإعلان التي تظهر بملابس تبرز مفاتنها ومواطن الإغراء فيها، وقيامها بحركات مثيرة كلها ميوعة وخلاعة، وبالرقص تارة، وبتلعيب العيون والحواجب تارة أخرى، وبهز الوسط والأرداف تارة ثالثة، إلى غير ذلك من إثارات شهوانية وحركات استفزازية للشباب، إنها إعلانات تتآمر على تشويه صورة المرأة وجعلها مثالًا صارخًا للإثارة الجنسية والعلاقات الشاذة، والإباحية، إلى غير ذلك من تشويهات، واعتداءات على شخصية المرأة، والنَّيل من مكانتها الاجتماعية وكرامتها الإنسانية.

إن مثل هذه الوسائل تتعمد نشر موادها بصراحة داعية إلى الانحراف ومحرضة على تحطيم القيود والقيم الاجتماعية، وذلك من خلال ما ينشر من أخبار العنف والإرهاب بأسلوب إغرائي، يحث على الانحلال وارتكاب مثل هذه الجرائم، أو محاكاتها، وتقليدها، وكذلك من خلال ما يعرض من فنون هابطة، ودعوة إلى تدني الذوق العام، والعمل على تدهور مستوى السلوك والأخلاق، كما تبث هذه الوسائل سمومها لتلويث المفاهيم، وتعطيل العقول، وذلك من خلال ما تنشره من مسلسلات حافلة بتجارة المخدرات وتعاطيها، وما تعرضه من حيل النصابين والغشاشين، والأفاكين... إلخ، بطريقة مثيرة للإعجاب والاستحسان، إلى غير ذلك من مجالاتٍ لإفساد الجماهير وتحريك مشاعرهم نحو المتع الزائفة، والسلبيات الهدامة وغيرها من مجالات الانحطاط الخلقي والفساد الاجتماعي.

٢ ـ **تضليل الجماهير**: هناك صور لا حصر لها من صور تضليل الجماهير وخداعهم، نذكر منها: ما ينشر من إعلانات إغرائية، مثل الإعلان عن السجائر، بإخراج إعلاني رائع، ثم يختتم الإعلام بذيل يحمل عبارة (التدخين ضار جدًّا بالصحة) بحروف صغيرة تكاد لا يلتفت إليها المُعْلَن إليهم، وهنا يكون التناقض والتضليل والاستخفاف بعقول الجماهير، ومن الصور التضليلية أيضًا تلك الإعلانات التي

تنشر عن سلع وشرح خصائص مُبالغ فيها إلى حد الكذب والتغرير بالمستهلك، وكذلك الإعلانات التي توقع المستهلكين في حبال الإغراءات البيعية والإعلانية لإثارة العواطف ومداعبتها، وبُعدها عن الإقناع العقلاني والإثبات المنطقي، فتدفع المستهلكين إلى الإسراف والترف والتبذير بدون مبرر، وما يترتب على ذلك من إرهاق لميزانياتهم، بل وقد تصل إلى حد توريطهم ودفعهم للاقتراض، وإيقاعهم في أزمات مالية خانقة، متعارضين في ذلك مع قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء].

٣ ـ **تجهيل الجماهير**: هناك سلبيات متعددة تمارسها بعض وسائل الإعلام، سواء عن قصد وعمد أم عن جهل وتجهيل، منها ما تنشره من تفاهات وسطحيات؛ استخفافًا بعقول الجماهير، وعدم احترام تطلعاتهم، ومن أمثلة التجهيل أيضًا استخدام ألفاظ ومفردات بذيئة وعبارات فجة منفرة، أصبحت تجري على ألسنة الناس التي تأثرت بما تردده بعض وسائل الإعلام، وكذلك ما تنشره من معاني هابطة، ومفاهيم متدنية.

ومن بين الصور التجهيلية تلك التي تغري البعض على الانتماء والولاء لبعض المصطلحات والمفردات الغربية، والتعامل بالمسميات الأجنبية بدعوى التحضر ومسايرة ركب التقدم كمحاولة للتخلص والتبرؤ من لغتنا العربية لغة القرآن، بل هي محاولة للانغماس في تقاليد الغرب، والاستجابة للغزو الفكري والثقافي المغرض، ويتم تجهيل الجماهير أيضًا من خلال ما ينشر عن أزياء آخر صيحة المستوردة من الغرب، وما تحمله من كلمات وعبارات قبيحة، وما تأخذه من أشكال شاذة غريبة، وما تتميز به من ألوان منفرة، بدعوى مسايرة (الموضة MODE) ومواكبة التمدين، ومحاولة إغراق الجماهير في عادات وتقاليد أجنبية بعيدة كل البعد عما يتفق مع قيمنا الإسلامية وضوابطنا الشرعية.

ومن السلبيات التجهيلية للجماهير تلك التي تمس رجال علوم الدين ومعلمي اللغة العربية، فتارة تتعمد بعض وسائل الإعلام الهجوم على هؤلاء العلماء، واتهامهم بالتخلف والرجعية والجمود الفكري، وتارة تستهزئ بهم وبالمواد الدينية، وإذا سمحت بنشر هذه المواد، فإن نصيبها مجرد مساحات قليلة في الصفحات الأكثر إهمالًا والأقل أهمية، في الصحافة المقروءة، أو إذاعتها في أوقات غير مناسبة في الصحافة المسموعة والمرئية.

بل ومحاولة الاستهزاء بمدرسي المواد الدينية والشرعية، وتشويه صورة المأذون الشرعي والسخرية منه، إلى غير ذلك من صور الاستهزاء والتحقير، بطريقة لا تخدم إلا الغزو الفكري، وتحقيق تمنيات أعداء الإسلام، لتجهيل الجماهير المسلمة.

٤ ـ إفشاء الفضائح وكشف الأسرار: لنا أن نسأل كم صحيفة من صحف الإثارة (Sensational Journalism) والصحافة الصفراء (Yellow Press) تتورط في إفشاء أسرار العائلات، والخوض في أعراض الناس، وتتعمد إفشاء الفضائح والقبائح، وغيرها من المثيرات؟ وكم من صحيفة ترتكب من الجرائم، مثل: جرائم القذف والسب العلني، والسخرية والاستهزاء، والتشهير؟

وكم من عدسات سينمائية أو تلفزيونية أو فيديوية... إلخ، تتفنن في عرض هذه المنكرات الإعلامية؟ وكم منها يرتكب على خشبات المسارح، ومن خلال المصورات (الكاميرات) الخفية، وخاصة المقربة (التليسكوبية) منها، التي تتجسس عن بعد؛ لتكشف عن كل ما يحرك الغرائز ويثير الشهوات؟

وكم أجهزة التنصت (وليس التصنت) تتلصص عن بُعد؛ لتكشف عن أدق خصوصيات الناس، وتفضح أسرارهم، إلى غير ذلك من منكرات ومحرمات.

إشاعة الفواحش والمنكرات الإعلامية وحرية الرأي: قد يقول قائل: إن النقد الإعلامي للفواحش والمنكرات الإعلامية، يتعارض مع حرية الرأي والاختيار، ورفضها أو على الأقل تحجيم مساحتها، إلى درجة كبيرة كما يشيع أعداء الإسلام.

ويرد على ذلك أن الإسلام كرَّم الإنسان، وحفظ حقوقه الشخصية، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء].

ومن ناحية أخرى، فإن حرية الرأي والفكر، وحرية الاختيار، قد أتاحها الإسلام، ولم يصادرها كما يدعي البعض، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس].

فالحرية هنا متاحة، والاختيار متوافر، دون ضغط أو إكراه أو خوف... إلخ.

كما أن هناك دليل آخر ن يؤكده القرآن لحرية الرأي وحرية التعبير، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة]، فقد فتحت هذه المجادلة التحاور والمناقشة وإبداء الرأي، إذ جرى هذا الحوار بين امرأة ـ زوج أوس بن ثابت ـ تعبر عن رأيها، وتناقش الرسول ﷺ، في مسألة ظهار زوجها لها، وينزل القرآن يقر هذا التحاور وتلك المناقشة، ويجعله قرآنًا يُتلى.

وهنا يثور سؤال، وهو: إلى أي حد تُطلق هذه الحرية؟ هل تُطلق الحرية لنشر الفواحش والمنكرات الإعلامية ـ كالنماذج التي ذكرناها ـ بشكل مطلق وبدون حدود؟ أو بمعنى آخر: هل يجوز اتخاذ مبدأ

حرية الرأي، كمبرر لإفشاء هذه الفواحش وتلك المنكرات الإعلامية بغير ضوابط؟ فالحق والحرية تنتهي عندما تبدأ حقوق الآخرين كما يقولون [ملحق جريدة الأهرام ١٠/ ١٢/ ١٩٩٣م ص ١١]، ومن ثم فإن إفشاء هذه الفواحش وتلك المنكرات الإعلامية، يُعد اعتداء صارخًا على حقوق هؤلاء.

وإذا كان هذا الاعتداء، هو اعتداء على الآخرين، وعلى المجتمع بشكل عام، فإن الاعتداء الأكبر، هو المساس بحرمة الدين، وما يحكمه من عقيدة وشريعة وعبادة، ولا يقصد بالدين أن يكون سجنًا وقيدًا، بقدر ما هو ضوابط وقائية لحماية الفرد والمجتمع معًا، ويضمن سعادة الدنيا والآخرة، فالدين يحارب الفساد والمفسدين؛ لما يؤدي ذلك من إفساد للأخلاق، واعتداء على الفضيلة والآداب العامة، إلى جانب إثارة الفتن، وما تحدثه من اضطرابات في المجتمع، وتفرق مفرداته، وتشتيت اتجاهات الرأي العام، والإخلال بانسجام تكويناته ووحدة أهدافه، والعبث بقيمه وأخلاقياته.

والسؤال الآن: هل تُمارَس حرية الرأي بالطريقة التي تشيع معها الفواحش والمنكرات الإعلامية بلا حدود، على حساب هذه الأهداف النبيلة؟ أم تُطلق حرية الرأي هذه، بحيث تضبط ولا تتعدى الإطار الشرعي، الذي يحافظ على هذه الأهداف.

عتاب وتوجيه إلى وسائل الإعلام المنحرفة: إن هذا النقد الإعلامي، وما يثار عن تقويم الممارسات الخاطئة للإعلام، أثبت أن بعض المسؤولين عن الإعلام في عالم آخر، بدليل أن المنكرات الإعلامية التي تنشر، لا تزال تشغل حيزًا كبيرًا من صفحاتها وبرامجها.

إن وسائل الإعلام لا تعد مسؤولة عن نشر هذه المنكرات فحسب، بل هي في المقام الأول مسؤولة عن تغيير المنكر، إذ أن هذه الوسائل الإعلامية، هي المقصودة في المرتبة الثانية ـ مع غيرها من المسؤولين ـ من تغيير المنكر، التي أوجبها الرسول ﷺ، وهو التغيير باللسان، حيث إن التغيير باليد من سلطات الحكام، مصداقًا لقول الرسول ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**».

[مسلم في الإيمان (٧٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٣)، ومسند أحمد ١٧/ ١٢٧ رقم ١١٠٧٣١].

إن بعض المسؤولين عن الإعلام في عالم آخر حقًّا، عالم يختلف عن هذه النداءات، إننا نتساءل: ولماذا هذا الإصرار؟ وما هي دوافعه؟ لذلك نود أن نلقي بعض الضوء على هذه الدوافع، ثم نعطي مثالًا للإصرار على هذه المنكرات، ومثالين آخرين على التخلي عن أنواع من الإصرار، مارسته للأسف جهات غير إسلامية، مما يدل على تحول بعض الجهات غير الإسلامية لتصحيح مسارها الإعلامي، لتغيير هذه المنكرات، وعدم اتخاذ خطوة مماثلة، من جانب المسؤولين عن الإعلام في الدول الإسلامية، وبعد ذلك ننهي حديثنا بتوجيه كلمة ختامية لهذه الوسائل، وذلك على النحو التالي:

(١) **دوافع الإصرار على المنكرات الإعلامية:** وهنا نسأل وسائل الإعلام: ما الذي يغري بعضكم على إشاعة الفواحش والمنكرات الإعلامية، ولماذا الإصرار على تلك الممارسات الضالة المضلة؟ هل هو إصرار تحت تأثير حب إشاعة الفاحشة، وتأثير النشوة واللذة التي تحسونها، وأنتم تنشرون هذه المنكرات؟ إنها لضلالة واستمتاع بها إلى حين، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

هل هو إصرار على ما ترونه حسنًا، ومن ثم ينطبق عليكم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف]، ثم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

ونسأل مرة أخرى: هل هو إصرار على ما يستحسنه البعض، فيرى القبيح حسنًا، اتباعًا لهوى نفسه، وما يسوله له شيطانه، ثم ترك الحُسن الحقيقي، المبني على الثبات واليقين والتأييد [**تفسير القرآن الكريم ـ أ/ محمود محمد حمزة وآخرون ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٢م، ٢٦/ ٣٦-٣٩**]، المدعم بالحجج الدامغة والأدلة القاطعة؟ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد]، أيستوي الفريقان في الجزاء؟! أفمن كان منهما على معرفة بينة بخالقه ومربيه فأطاعه، كمن زين له سوء عمله، وانهمكوا في الضلال حتى عبدوا الهوى. [**صفوة التفاسير للصابوني ٣/ ٢٠٨-٢٠٩**].

إن من يتبع هوى نفسه، ولا يتدبر في البرهان، ولا يفكر في البيان، فيكون في غاية البُعد عن السلوك القويم، والمسار الصحيح. [**تفسير الفخر الرازي ـ دار الفكر ـ بيروت ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م، ١٤/ ٥٣**].

ولا نملك هنا إلا ترديد قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك].

(٢) **مثال للإصرار على إشاعة المنكرات الإعلامية:** هناك عدد كبير لا يقع تحت الحصر للممارسات الخاطئة، التي تمارسها بعض وسائل الإعلام؛ ولذلك نكتفي بتقديم مثال لإصرار تلك الوسائل، على إشاعة المنكرات الإعلامية، بل وتحدي مشاعر المسلمين، واستفزاز شبابهم، وفيما يلي هذا المثال: «نشرت إحدى الصحف تعليقًا لأحد كُتابها [**جريدة الأهرام في ١٢/ ٩/ ١٩٩٢م، ص ٢**] بقوله: «للمرة الثالثة تعرض القناة الثانية ـ في إحدى الدول العربية ـ مسلسل عائلة كولبي، الذي يتناول سيرة عائلة أمريكية شديدة الانحلال والانحطاط، إلى حد أن جميع رجال ونساء تلك الأسرة تقريبًا يمارسون الجنس مع المحارم، ببساطة مذهلة واستجابة تامة، وهو ما يؤدي في جيل تال، إلى أن يزاول الأخوة الحرام... والبشاعة مع بعضهم وأبنائهم!

إن هذا المسلسل يثير عجب الكثيرين وسخطهم، ويدفعهم إلى التساؤل عن الدافع لعرض هذا المسلسل مرة ثانية، ثم ثالثة! خاصة أن تلك الأخيرة تحدث في فترة ما قبل المغرب خلال أجازة الصيف، مما يتم مشاهدتها أمام الشباب بمختلف فئاتهم وطبقاتهم الاجتماعية وأعمارهم، وبينهم طلبة وطالبات في سن المراهقة، فضلًا عن مشاهدتها أيضًا، ممن قد لا يفكرون كثيرًا في معقولية ما يشاهدونه، ولا يتصورون أن المسألة ليست أكثر من خيال وتأليف وإخراج، لا يهدف إلا إلى إثارة الخيال لدى الكبار الطاعنين في السن.

نعم إن تلك النوعية الشاذة من المسلسلات الأجنبية، لا يرحب عموم أبناء البلاد التي أنجبتها، حتى ولو كانوا أوربيين بمشاهدتها؛ وذلك لأن تلك النوعية تتجها بعض محطات التلفزيون أو الشركات خصيصًا للعرض صباحًا وظهرًا للطاعنين في السن المقيمين في البيوت ودور الضيافة الخاصة بهم؛ ولذلك لا يعرضونها غالبًا على الشاشة الصغيرة، في الفترات المسائية؛ لأنهم يعتبرونها شبيهة بالأفلام السينمائية الفاضحة التي تعرض في دور خاصة بها، سواء في أوربا أم أمريكا، وتلك الدور أيضًا لا يدخلها غالبًا إلا الطاعنون في السن من الرجال والنساء، والمرضى بالعجز وعدم الثقة والمشوهون».

انتهى التعليق، ولا تعليق إلا أن نقول: إنه مثال لإشاعة المنكرات الإعلامية، عن عمد وسبق إصرار ليست مرة ولكن ثانية وثالثة!

(٣) **مثالان لرفض المنكرات الإعلامية**: نقدم فيما يلي مثالين لرفض المنكرات الإعلامية في دول غير إسلامية، مما يعد خطوة لتصحيح بعض المسارات الإعلامية، في وقت وقفت فيه بعض وسائل الإعلام الإسلامية بإصرار، على إشاعة هذه المنكرات، وفيما يلي المثال الأول عن رفض الغزو الفكري، والآخر عن التخلي عن الإصرار على عينة من المنكرات الإعلامية، وفيما يلي عرض سريع لكل منهما:

(أ) **رفض الغزو الفكري**: أصدرت الحكومة الصينية قرارًا بمنع احتفالات (الكريسماس) وعيد الحب، وكذبة إبريل في المدارس والجامعات؛ لأنها احتفالات غربية، ولا علاقة لها بالتقاليد الصينية، وكانت الجامعات والمدارس الصينية، قد بدأت مؤخرًا تنظيم الاحتفالات الراقصة، خلال المناسبات، التي تحتفل بها الدول الغربية، مما أثار حفيظة عدد كبير من المسؤولين.

[جريدة الأهرام في ١٠/ ١٢/ ١٩٩٣م، ص ٤].

(ب) **التخلي عن الإصرار على المنكرات الإعلامية**: نود أن نعطي مثالًا آخرَ عن رفض المنكرات الإعلامية، وذلك بالتخلي عن الإصرار على ممارسة نشر هذه المنكرات، والسؤال: من الذي تخلى عن الإصرار ورفض المنكر؟ لقد رفض في بلد غير مسلم، رفض في فرنسا، بلد الحرية والثورة الدائمة على القيود والسماح بالحريات الفردية.

وهذا المثال هو خلاصة ما نشرته الصحف الفرنسية [جريدة الأهرام في ٣٠/ ٦/ ١٩٩٢م، ص ٩]، دون انتظار قرار أصدرته رئيسة بلدية (هيربييه) السيدة جان برياند بمنع عرض فيلم اسمه (غريزة منحطة)، وكان من الأفلام اللافتة في مهرجان (كان) السينمائي، خلال شهر مايو ١٩٩٢م، ونتيجة لهذا القرار ظلت دور السينما، التي تعاقدت على عرض هذا الفيلم مقفلة الأبواب وشباك التذاكر خال، وأعلنت رئيسة البلدية أن سبب قرارها الاستثنائي المغاير لموافقة الدولة على عرض الفيلم في فرنسا، أنها اكتشفت أن الفيلم يروج للجريمة والعنف، إلى حد التمجيد، ولا ينقص الأجيال الجديدة مزيدًا من الترويج للجرائم والعنف، كما أن الطريقة التي تتم بها جريمة الاغتصاب في الفيلم، تجعل من يشاهدها من الشبان مستعدًا للاغتصاب.

(٤) **كلمة ختامية ناصحة**: نقول لوسائل الإعلام المنحرفة، ألا تؤكد الأمثلة السابقة أنكم في عالم آخر، أين أنتم من نداءات القرآن وتعاليم السنة النبوية، وما هو موقفكم من ميثاق الشرف الإعلامي، الذي أصبح مجرد شعارات جوفاء، ليس لها من الاحترام نصيب؟ نقول لكم: ألم تعلموا أن الله يرى؟ ألا تظنون أنكم مبعوثون ليوم عظيم؟ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين]، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار].

نقول لكم: هداكم الله لما يحبه ويرضاه، ونذكركم بقول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة]، فالمصير معروف في الدنيا والآخرة، لمن يحبون أن تشيع الفاحشة، ونشر هذه المنكرات، ففي الدنيا خزي وعذاب، وفي الآخرة عذاب شديد، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝١٩﴾ [النور]». [حديث الإفك من المنظور الإعلامي لرشوان ١١٢، ١٢٠-١٢٤، ١٣٤-١٤٦].